T
15A
C.1

الشـــــيخ محمـــد عبـــده

الحلم الديني في القرن التاسع عشر

تقدم هذا البحث الى دائـرة التاريـخ العربي بالجامعة الاميركيـة في بيروت

لاحـراز درجـة " اســـتاذ في العلوم " في فـرع تاريخ العرب .

حزيران ١٩٥١ ـ بيروت .

محمد بشير خولة

الفهـــرس

رقم الصفحة

(جـ) ـ تمهيد
(د) ـ تنويـه

١ ـ الفصل الأول . ـ نشـــأته ودور اعداده :

بيئته المنزلية ص ١ . في القرية ص ٢ . تجويده القرآن وطلبه للعلم
في طنطا ص ٢ . لقاؤه للشيخ درويش امامه الروحي الأول ص ٤ .
في الازهـر ـ طالب علم ومتصـوف ص ٨ .
مع جمال الدين امامه العقلي ص ١٣
تخرجه من الازهـر واحرازه شـهادة العالمية ص ٢١

٢٢ـ الفصل الثاني . ـ اصـلاحه الديني :

الجيل المسـلم في مصر في القرن التاسع عشـر وتيارات الغرب ص ٢٢
مذهب الشـيخ عبده في الاصـلاح ص ٢٣
تحريره للفكـر الديني ص ٢٤
تركيزه العقائد الاسـلامية على العقل ص ٢٨
فهم الدين من ينابيعه الأولى ص ٣٢
التوفيق بين الدين والعلم ص ٣٩

٤٨ ـ الفصل الثالث . ـ الدعوة الى الاسـلام والدفاع عنه :

رسـائله الاصـلاحية في الارشـاد ص ٤٨
التقريب بين الاديـان الثلاثة ص ٥٠
ازالـة الشـبه عن الاسـلام ص ٥٣
محاربة التبشـير النصراني ص ٥٩
الرد على هانوتـو ص ٦٢

الفهـــرس

رقم الصفحة

٦٦ الفصل الرابع - اعماله في ميدان الاصلاح الاسلامي :

في الجمعية الخيرية الاسلامية ص ٦٦

في اصلاح الازهر ص ٦٦

في الافتاء ص ٧٢

في اصلاح المحاكم الشرعية ص ٧٧

٧٩ الفصل الخامس - دراسة نقدية

نظرة في حالة الامم الاسلامية في عصر محمد عبده ص ٧٩

تعقيد وثنائية في شخصيته ص ٨٠

مدرسة محمد عبده بين المحافظين والمتفرنجين ص ٨١

اخلاصه للاسلام وكلمة في مناقبه ص ٨١ - ٨٤

ضعف توجيهه ، وعدم كفاية فهمه للاسلام لاحداث النهوض العلمي ص ٨٤

محمد عبد والايمان ص ٨٥

محمد عبده والتأويل ص ٨٦

محمد عبده والشفاعة ص ٨٨

محمد عبده والوسيلة ص ٩٠

الاصلاح والمشكلة الاخلاقية ص ٩١

٩٣ المصادر والمراجع

تمهيـــد

قيـل ان شـــخصية الشـــيخ محمد عبده قد هيمنت على مجرى التفكير في مصـر في ختام القرن التاســع عشـــر والســـنوات الخمس الاولى من مســـتهل القرن الحاضر . وقد تخلّف عن تعاليمها مدرســـة حديثة تســـعى الى التوفيق بين الاســـــلام ومطاليب الحياة الجديدة . واليها تعزى اتجاهـات التجديد في الاســـلام الحديث . فدفعني ذلك الى اختيـــار زعيمها ومؤســـســـها الشـــيخ محمد عبده موضوعا لبحث رســـالتي آملا في الكشـــف قدر المســـتطاع عما ابرزه هذا المفكر الديني من نواحي الاســـــلام الصحيح ، وما اضافه من تجديد رجاء التوفيق بين الدين والمدنية ، وما اعترضه من عوائـق حالت بينه وبين النهوض بالمســـلمين عن طريق الاســـــلام . وعســـى ان اكون قد اصبت بعضما رجوت في هذه الورقات .

هذا واني اقدم خالص شـــكري الى اســـتاذي الموجه الدكتور نقولا زيادة على ما ابداه لي من معونة وما لفت نظري اليـه من توجيهات وما هداني اليـه من مصادر وما ازاحـه عن المخطوطة من اخطاء في العربيـة .

الجامعة الاميركيـة
ببيروت في ١٩٥١/٦/٤ .

محمد بشـير خولـة

تنويـــــــه

١ ــ حبا بالايجاز جعلت اسطر الكتب في الهوامش مختصرة . والمرجع والرجوع الى قائمة المصادر والمراجع يوضح ذلك .

٢ ــ ان الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام عبارة عن مقالات ولوائح ورسائل كتبها الشيخ محمد عبده نفسه وليس لناشر الكتاب محمد رشيد رضا الا عطية الجمع والطبع . وأحببت الاشارة الى ذلك هنا ليعلم ان النصوص المأخوذة من هذا المصدر هي للشيخ عبده لا لتلميذه .

٣ ــ استخطت الطبعة الثانية (سنة ١٣٤٤ هـ) من هذا الجزء دوطا الا عند التصدى لرسائل الواردات فرجعت الى الطبعة الاولى (سنة ١٣٢٤هـ) لأن هذه الرسائل اسقطت من الطبعة الثانية .

٤ ــ اما الجزء الثالث من تاريخ الاستاذ الامام فهو مجموعة لمقالات الجرائد ولرجال مصر وغيرهم انشئت على سبيل التأبين للفقيد الشيخ عبده .

الفصل الاول

نشأته ودور اعداده

اردت في هذا الفصل ان ادون سيرة الشيخ محمد عبده في طفولته وصباه وايام طلبه للعلم لما في ذلك من ايضاح لطبيعته الموروثه وظروف البيئة التي درج فيها فساهمت في اخراج تلك الشخصية الفعالة من استعداد الفطرة ووجهتها في مجاري الاصلاح والتجديد .

ولد المترجم سنة ١٨٤٩ (١٢٦٦هـ) .وهذا التاريخ ، وان وصلتنا روايات تباينه ، هو المعتمد من قبل اصدقائه وتلاميذه (١) . ونشأ في قرية محلة نصر نشأة صبيان القرى الصغيرة في مصر ، فبرع في السباحة والفروسية ولعب السلاح (٢) وتعلق قلبه بمحبة الحياة الريفية وما يرافقها من نشاط ووجد فيها جوا " اعون على خلوص الفطر من تصنع البلاد المتحضرة " (٣) .

كانت بيئته المنزلية باعثا على صوغ عاداته الخلقية فقد كان ابوه عبده خير الله رجلا ذا وفرة في النشاط وثبات في العزيمة وقورا محترما في بلده مما افعم قلب الفتى بعاطفة الاكبار لمقامه (٤) . ويحدثنا الشيخ محمد عبده في الترجمة التي كتبها لنفسه اواخر حياته عن ابيه ، يقول : " ثم وجدت والدي يقري الضيف ويؤوي الغريب ويفتخر باكرام النزيل وذلك كان يزيد منزلته من نفسي علوا وانا لا افهم من هذا الا انه شيء يفتخر به بدون ان اعقل له علة " (٥) . اما والدته فقد ضربت له بخطة حياتها مثلا راقيا في ليين الجانب واشفاق الفؤاد على البائسين ويقول عنها : " كانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة والدي وكانت ترحم المساكين وتعطف على الضعفاء وتعد ذلك مجدا وطاعة لله وحمدا " (٦) . ونستدل من سيرة المترجم كهلا ان هذه البيئة التي حضنته طفلا قد لقيت في فطرته صدى لها وانسجاما معها .

---

١) رضا ج ١ ص ١٦ ، آدمز ص ٢١ ، عبد الرازق ص ١٢
٢) المنار م ٨ (١٩٠٥) ص ٣٩٦
٣) عبد الرازق ص ١٦
٤) رضا ج ١ ص ١٣
٥) المصدر نفسه ، الصفحه ذاتها .

وضعت اسرته كذلك عناصر اخرى كان لها ايضا حساب في اعداده للمستقبل وذلك ان اباه كانت له زوجة اخرى غير امه ، له منها بنون وبنات ، فوقف الصبي على احوال المنزل الذى تعددت زوجاته واختلفت امهاته (١) .

ويظهر ان الطفل كان ذا منزلة خاصة عند ابويه . ولعل ذلك يعود الى كونه اصغر اولاد امه وانجب اخوته . يدلنا على ذلك عناية ابيه بتعليمه من دون سائر بنيه وانه زوجه صغيرا كما سنرى (٢) .

وينعم الابناء المميزون عادة بشيء من الاستقلال والحرية في احضان اهليهم فينشأون على الجراءة والاقدام (٣) .

تعلمه . — تعلم المترجم القراءة والكتابة على معلم خاص في منزل والده ولما بلغ العاشرة ارسل الى دار حافظ للقرآن ليقرئه اياه على انفراد وقد اظهر الطفل مقدرة وذكاء اذ حفظ القرآن كله غيبا في مدة سنتين (٤) . عند ذلك حمله والده الى طنطا ليجود القرآن في المسجد الاحمدى المشهور بتعليم هذا الفن ، اتقن فنانا التجويد خلال عامين ايضا ثم جلس في دروس العلم (٥) .

وهنا نعثر على ناحية في التربية الاسلامية الشائعة يومئذ كان لها ايضا دخل كبير في تهيئة الفتى للكفاح في المستقبل . فقد كان لزاما على المبتدىء في دروس العلم ان يشرع في قراءة كتاب في الفقه وآخر في النحو على شيخ من شيوخ المسجد . وكان درس الفقه ، على عقم طريقته باخف وطأة على المتعلمين من دروس النحو . يرجع ذلك الى طبيعة الموضوع في كليهما . فبينما هو في الحالة الاولى يتعلق باعطال ظاهرة يمارسها المسلمون اذا به في الاخرى يعالج احوال الكلام وهذا امر مجرد جدا بالنسبة الى الفتيان المبتدئين ولذلك يحتاج الى طريقة حاذقة لاساغته . ولكن الامر كان على العكس من ذلك . فان الطريقة المتبعة يومئذ كانت من العقم والرداءة بحيث جعلت النحو عقبة لا تقتحم في وجه الطلبة الاحداث (٦) .

---

١) عبد الرازق ص ١٨ ، عثمان امين ص ٦
٢) عبد الرازق ص ١٩
٣) عبد الرازق ص ١٩
٤) رضا ١ ص ٢٠
٥) عبد الرازق ص ١٩
٦) احمد امين ص ٢٨١ — ٢٨٢ ، كان الكتاب المدرس في النحو شرح الكفراوى على الاجرومية وهو غاية في الغموض .

واذ يصف الأستاذ احمد امين[1] تلك الدروس يقول : " فلو ان متكلما تكلم بالسريانية لكان اهون " .

توالت الدروس ووجد التلميذ محمد عبده نفسه ازاء كلام مغلق يسيل من فم الشيخ ولا يفقه له معنى . وهو كلما امعن في محاولة الفهم اشتدت حيرته بين يدى رموز والغاز لا عهد له بها من قبل . والذكي عادة يطلب الفهم ولا يستقر على غموض . هنالك سعى النفس الى شيخه طلبا لاستجلاء المعاني وكانت العادة قد جرت على طراز آخر غير الاستفسار والاستجلاء وانما الحفظ من غير فهم فشق على الشيخ تغيير المألوف وطلب تلميذه بالقسوة وامره بالاقلاع عن اسئلته بصورة جافية[2] .

ذلك الطغيان العقلي من جانب المشايخ كان يستعد سلطته من الدين التقليدي الجامد ويحاول ان يستبد بعقول الناشئة ولكن ذلك ما كان ليلقى من نفس غني الطبيعة بعنصر الاستقلال وحب الحرية ، درج طبعها في جوه الريفي والمنزلي ، ما كان ليلقى استسلاما وخضوعا بل ثورة وجموحا .

اجاب محمد عبده على عقم النحو وقسوة شيوخه وتعادي خيبته في تعلمه بنفور شديد من العلم ولم يجد حلا لمشكلته الا الهرب من الدروس والاعراض عن مجالسها واهلها . ولف صاحبنا ثيابه ومتاعه وعاد الى اهله لا يلوى على شيء عازما على البقاء في قريته والاشتغال بملاحظة الزراعة[3] .

وبنم هذا الحل ، في ما ارى ، عن طوية المتورم وما حوت من استعدادات طيبة وذكاء مشفوع بعزة وابا . يقول متحدثا عن رداءة التعليم الذى لقيه في صغره : " فهذا اول اثر وجدت في نفسي من طريقة التعليم في طنطا وهي بعينها طريقته في الازهر وهو الاثر الذى يجده تسعة وتسعون في المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذه السبيل في التعليم — سبيل القاء المعلم ما يعرفه وما لا يعرفه ، بدون ان يراعي المتعلم ودرجة استعداده للفهم . غير ان الاغلب من الطلبة الذين لا يفهمون ، تغشهم انفسهم فيظنون انهم فهموا شيئا ، فيستمرون على الطلب الى ان يبلغوا سن الرجال وهم في احلام الاطفال ، ثم يبتلى بهم الناس وتصاب بهم العامة .

---

١) احمد امين ص ٢٨٢
٢) عثمان امين ص ٩
٣) رضا ج ١ ص ٢٠

فتعظم بهم الرزية لانهم يزيدون الجاهل جهالة ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ويؤذون بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه "(١) .

وحاول ابوه تحويله عن سخطه فزوجه عند رجوعه من طنطا ايضا من العلم املا في ان تنسيه ظروفه الاجتماعية الجديدة غيظه وسكت عنه اربعين يوما ثم جاءه ضحوة نهار وطلب اليه بحزم العودة الى المسجد الاحمدي لمواصلة دروس العلم . وفي الطريق فرّ الفتى الى قرية يقال لها كنيسة اورين حيث يقيم خال لابيه يسمى الشيخ درويش خضر فكان للقائه به اثره وخطره اذ حول سخطه رضى وبدل نفوره من العلم ميلا وحبا . وهنا يقول :

" ولكنني صادفت في مهربي من علمي كيف اطلب العلم من اقرب وجوهه فذقت لذته واستمرت في طلبه "(٢) .

ولا يستطيع الباحث ان يمر بشخصية هذا الشيخ دون ان تجذبه وتحمله على الوقوف عندها ليرى ما احدثته في نفسية الشاب الناقمة من اتجاهات جديدة كان لها في العقلية الناشئة فعل محمود واثر مخلد "(٣) .

كان هذا الشيخ قد سبقت له اسفار الى صحراء ليبيا ووصل الى طرابلس الغرب ولقي السيد محمد المدني وتعلم عنده طرفا من العلوم الاسلامية واخذ عنه الطريقة الشاذلية احدى طرق الصوفية ، وكان يحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث ويتقن حفظ القرآن ويحسن فهمه .

وقد استقر الشيخ درويش بعد رجوعه من السفر في قريته كنيسة اورين واتخذ فلاحة الارض وسيلة لكسب الرزق "(٤) ولكن صفاء عقيدته وما اضفى التصوف على روحه من حلم ولطف وجلاء بصر كل ذلك ساهم ، الى جانب ما تزود من علم ، في اعداده ليبث تعاليم الاسلام الصحيحة في المناسبات الاجتماعية المتاحة له في بيئته المحدودة "(٥) .

بهذه النفس الوادعة استطاع الشيخ ان يؤثر في نفس الشاب الساخطة ويقول مصطفى عبد الرازق :" ان امثال هذا الشيخ يوجدون شذوذا بين الاعداد الكثيرة من رجال الطرق ويكون لهم اثر روحي في المستعدين من مريديهم بما في نفوسهم من صفاء وما في ايمانهم من قوة ليست مستمدة من ناحية علمية "(٦) .

---

١) رضا ج ١ ص ٢٠ — ٢١
٢) تفسير الفاتحة ص ٢١٥ — ٢١٦
٣) انظر احمد امين ص ٢٨٣
٤) رضا ج ١ ص ٢١ = ٢٢ ، عثمان امين ص ١١ — ١٢
٥) عثمان امين ص ١٢
٦) عبد الرازق ص ٣٢

ويمكنني ان اضيف الى هذا القول ان الاتصال الروحي الذى تقوم عليه فكرة التصوف هو واهب التسامح والحكمة للنفس الانسانية المتدينة وان كل دين ، كما سنرى عند بحثنا في تقدير الشيخ عبده الديني ، لا يقدم هذا الهدف ووسائله الموصلة اليه في راس القائمة هو عقيم ابتر لا يزيد الجماعة الا تعصبا وجمودا ولا ينهض بهم ابدا الى العيش الاجتماعي السعيد .

جاء هذا الشيخ صبيحة الليلة التي باتها محمد عبده في الكنيسة وبيده كتاب يحتوى على رسائل من كتابة السيد محمد المدني الى بعض مريديه بالاطراف وسأل الفتى ان يقرأ له فيها شيئا لضعف بصره . وهنا تجلت روح السخط والنفور من العلم في تصرف الشاب عبده . يقول :

" فدفعت طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ونفرت منه اشد النفور ولما وضع الكتاب بين يدى رميته الى بعيد "(١) .

تلك كانت جناية المسجد الاحمدى وتعليمه على هذا العقل الآخذ في التكون وتلك الشخصية النابتة .

على ان الشيخ درويشا استطاع بسماحته الخلقيه ان يستميل الشاب بعد ان لفظ غضبه ووضع عنه وزره واخذ الشيخ الحليم يمد اصابعه الرفيقة الى تلك العقدة النفسية(٢) التي كونها شرح الكفراوى على الاجرومية واحكمها التصرف الجافي لشيخ النحو في طنطا ، وبدأت يد الحكمة تحل ما عقدته يد الجهالة . وبعد ان كان الشاب قد اعتقد في المسجد الاحمدى انه لا يفهم ولن يفهم وحل مشكلته كما رأينا بالفرار اتاه الشيخ درويش واثبت له امكانيته وقدرته على الفهم بان اقرأه اخيرا بضعة اسطر وفسرها له بعبارة واضحة غالبت اعراضه فغلبته وسبقت الى نفسه(٣) .

ولم تمض ايام معدودات حتى رسخ ولع الشاب بالمطالعة والفهم ، وتبدلت ميوله ورغب عن اللعب مع شبان القرية الى القراءة والدرس . يقول هو عن نفسه :

" لم يأت على اليوم الخامس الا وقد صار ابغض شيء الي ما كنت احبه من لعب ولهو ، وخفة وزهو ، وعاد احب شيء الي ما كنت ابغضه من مطالعة وفهم وكرهت صورا ولبك الشبان .

---

١) رضا ج ١ ص ٢٢
٢) احمد امين ص ٢٨٤
٣) رضا ج ١ ص ٢٢

الذين كانوا يدعونني الى ما كنت أحب ويزهدونني في عشرة الشيخ رحمه الله فكنت لا أحتمل ان اري واحدا منهم بل افر من لقائهم كما يفر السليم من الأجرب (١) .

وعن للشاب ان يسأل الشيخ ، في اليوم السابع ، عن طريقته . ولشد ما راعه الجواب حين سمع مربيه يقول : " طريقتنا الاسلام" (٢) . ولكن " أوليس كل هؤلاء الناس بمسلمين (٣) ؟ " سأل الشاب . فأجابه الشيخ " لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الامر ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب " (٤) .

صورة جديدة للاسلام رسمتها هذه الكلمات في ذهن محمد عبده ومحت ما دونها من صور ولا يستطيع الباحث ان يصف وقع هذه الافكار على عقلية المترجم بمثل ما وصفه هو نفسه حين يقول : " هذه الكلمات كانت كأنها نار احرقت جميع ما كان عندى من المتاع القديم — متاع تلك الدعاوى الباطلة والمزاعم الفاسدة ، متاع الغرور باننا مسلمون ناجون ، وان كنا في غمرة ساهين (٥) " .

فالتنازع والكذب من الرذائل الاجتماعية التي تفسد الاسلام في نفوس اهله . ولا يستقر الاسلام الصحيح الا حيث العدالة والصدق ، العدالة التي تدفع كل فرد لانصاف اخيه من نفسه فيسود السلام ويزول الخصام ، والصدق الذى يتفجر عن الضمير الخير فتشيع الثقة والامانة بين الناس .

بمثل هذه الافكار السديدة طلع الشيخ محمد على عقلية الفتى وتمكن من اجتذابه بها والتأثير في قلبه فهداه الى تلاوة القرآن مع التدبر والفهم عقب الصلوات وأوحى اليه بذكر الله في الخلوات (٦) .

واخذ الشاب يعمل بالهدي الجديد منذ اليوم الثامن فوجد لذلك اثرا روحيا استحبه وامتدحه في أواخر حياته يقول :

" فلم تمض علي بضعة ايام الا وقد رأيتني اطير بنفسي في عالم آخر غير الذى كنت اعهد ، واتسع لي ما كان ضيقا ، وصغر عندى من الدنيا ما كان كبيرا ، وعظم عندى من

---

١) رضا ج ١ ص ٢٢ — ٢٣

٢) ، (٣) ، (٤) رضا ج ١ ص ٢٣ ، يقول احمد امين ص ٢٨٤ اذ يتحدث عن الشيخ درويش انه " كان متأثرا بتعاليم السنوسية التي تتفق مع الوهابيه في الدعوة الى الرجوع الى الاسلام الاول في بساطته الاولى وتنقيته من البدع " .

٥) رضا ج ١ ص ٢٣

٦) رضا ج ١ ص ٢٣

امر العرفان والنزوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيرا ، وتفرقت عني جميع الهموم ولم يبق لي الا همّ واحد وهو ان اكون كامل المعرفة كامل ادب النفس ولم اجد اماما يرشدني الى ما وجهت اليه نفسي الا ذلك الشيخ الذى اخرجني في بضعة ايام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد ، الى اطلاق التوحيد ، هذا هو الاثر الذى وجدته في نفسي من صحبة احد اقاربي وهو الشيخ درويش خضر من اهل (كفر نصة اورين) من مديرية البحيرة . وهو مفتاح سعادتي ان كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا ، وهو الذى رد لي ما كان غاب من غريزتي وكشف لي ما كان خفي عني مما اودع في فطرتي[1] .

وفي اليوم الخامس عشر من مقامه مع الشيخ علم ان والدته ذهبت الى طنطا لتراه فخاف ان يعلم والده بغيابه فيشتد عليه في اللوم لانه كما يقول محمد عبده :

"لو كنت اقمت له الف دليل على انني وجدت في مهربي مطلبه ومطلبي لما اقتنع"[2] .

واسرع الفتى بالعودة الى دروس العلم في المسجد الاحمدى بطنطا .

رجع محمد عبده ولكن بنفس جديدة تذوقت لذة الفهم واصبحت حريصة عليه وجلا بصيرتها نور العرفان الروحي .

لم يطل مقامه هذه المرة في طنطا وقد بدت عليه انناء دراسته فيها اثار التفوق على رفاقه اذ اخذ بعضهم يلتفون حوله ليشرح لهم الدرس قبل مجيء الاستاذ وهكذا نبتت ثقته بنفسه ، هذه الثقة التي لا يتم عمل عقلي بدونها ولا يتكون رأى مستقل في الحياة الا بها وبعد ذلك للفتى طورا جديدا وفتح له باب النمو فاخذ يسير على الدرب[3] .

وفي مستهل العام التالي كان محمد عبده يسير الى القاهرة ليطلب العلم في مدرستها الازهرية ذلك المعهد الاسلامي القديم الذى ملأ شهرته كافة البلدان الاسلامية .

واذا كان مقامه في المسجد الاحمدى قد افاده ، كما ذكرت الى اتجاه اصلاحي يسعى ليزيل به في المستقبل مفاسد اساليب التعليم الاسلامي فان ما شاهده رأي العين من ضروب التوسل والتذلل لمقام الشيخ البدوى المدفون في هذا المسجد قد حداه في ما بعد كما سنرى للثورة على عبادة الاولياء والاستغاثة بهم من قبل العامة وكثير من الخاصة[4] .

---

١) رضا ج ١ ص ٢٣
٢) رضا ج ١ ص ٢٣
٣) احمد امين ص ٢٨٥
٤) عبد الرازق ص ٣١ ـ ٣٢

في الأزهـــر

ذهب محمد عبده الى العاصمة بنفس يحفزها الذكاء ويكمن فيها ميل قوي للعلم آخذ بالنمو على مر الايام والاعوام . ويجدر بي هنا ان اعرض للجو الازهري في تلك الفترة للتعرف الى اثره في عقلية الشاب ، ذلك الاثر الذي ينعته الشيخ محمد عبده في اواخر حياته انه من السوء بحيث ظل عشر سنين يكنس من دماغه طبقا عليه من وساخة الازهر وهو لم يبلغ بعد ما اراد له من النظافة (١) . كان التمسك بالتقاليد الموروثة شعار الشيوخ في الازهر اذ انه اكسب على مر العصور منذ القرون الوسطى عوائد ما لبثت ان رسخت في عقول محافظيه واضفى عليها التدين الجامد الجاهل قدسية موهومة . ولما نظر محمد علي باشا في مستهل القرن التاسع عشر الى جو هذا المعهد التعليمي وصفات اهله عدل عن التفكير في اصلاحه مخافة اثارة حفيظة العلماء (٢) . فبقي الازهر يسير في مجراه القديم . ويظهر لي ان التحجر الفكري الذي برزت صورته جلية في العقلية الازهرية ، في القرن الماضي ، انما يرجع الى ضعف الروح اذ من طبيعة النفس المتدينة ، اذا ضعفت ووهنت ، ان تلجأ الى التعويض عن ذلك باستمساكها بالحرف وجمودها على النص والطقس والعادات الموروثة جمودا يشل نشاط العقل ويقفل اذنه الواعية بحيث يتأول لديه كل شيء الى معنى سطحي يطفو على وجه الفكر مثل بطفو الزيت على سطح الماء .

ولم يكن هذا الوهن ، في ما ارى ، وليد القرون المذكورة بل يمتد تاريخه الى اواسط القرن الثالث الهجري حيث اغلقت ابواب الاجتهاد وصد عن البحث في مصادر الدين لاستنباط الاحكام الجديدة للاحوال الجديدة ، واصبحت الآثار التي خلفها ذلك العهد البعيد ، هي المراجع التي يرجع اليها في الدين ، وللاجيال اللاحقة غير تقريرها وضعه السلف وتفسير معناه (٣) .

لقد ادى اقفال باب الاجتهاد الى خمول فكري وجمل ابحاث العلماء بعد ذلك تفضي الى سير العقل في مكانه ، فبدلا من فهم اصول الاسلام في ينابيعه الاولى والتعمق في فهم القرآن للتمكن من مسايرة الحياة الاجتماعية المتحولة من البساطة الى التعقيد بتقدم الزمن تبع المسلمون في تلك النتائج التي استنبطها فقهاء العصور الاولى ظنا منهم

---

١) رشا ج ١ ص ٤٩٤ ، يقول احمد امين ص ٢٨٩ : « وظل هذه البيئة تنتج عقولا جامدة ونفوسا خامدة الا ان يتداركها الله بمدد من الخارج ... فان رأيت نابغة خرج منها فبرغمها لا بفضلها » .

٢) احمد عزت عبد الكريم ص ٥٥٨ — ٥٥٩

٣) آدمز ص ٢٧ — ٢٨

ان الاقدمين قد استوفوا الكلام بمؤلفاتهم في كل موضوع ولم يبق لهم الا ان يعمدوا الى مطولاتهم فيختصروها في متون مكثفة معقدة التراكيب موجزة الالفاظ ثم جاء من بعدهم خلف استحسنوا شرح هذه المتون وتوالت علماء الاسلام فوضع بعضهم الحواشي على الشروح ثم اضاف من تلاهم التقارير حتى " حجبت اضواء العلوم تحت هذه السحب الكثيفة ، وتضاءل اللباب تحت القشور ، واستحكمت حلقات التعقيد ، ووقعت الاذهان في المحنة والارتباك "(١) .

وادى الجمود على المذاهب الفقهية الاربعة الى انقسام المسلمين شيعا ونزلت بهم مصيبة التقليد العارى من الفهم فسببت تحريما لكل علم جديد يثمره البحث المستقل الحر .

لهذا كله وجد محمد علي باشا اصلاح الازهر ، كي يلائم مطالب الحياة الجديدة ، امرا شائكا فانصرف الى فتح المدارس الرسمية وارسال البعوث العلمية ولم تمض مدة حتى اثمرت تلك الخطة طبقة من المفكرين والعلماء من الطراز الحديث اخذوا قسطا وافرا من العلوم العصرية في جامعات اوربة وعادوا الى وطنهم فدب في الحركة الفكرية ، بسببهم ، دبيب الانتعاش والتنبه (٢) . اما المدارس الرسمية فاخذت تنمو وتقاسم الازهر تربية الناشئة وتزاحمه اشد المزاحمة مما ادى الى اضرام التنافس وطبع حركة التعليم في مصر بسمة التنازع طوال القرن التاسع عشر لا سيما منذ حكم الخديو اسماعيل (٣) .

واذ اصطبغت الروح الازهرية بحب المحافظة على القديم ، وتغليب النقل على العقل ، والنفور من كل جديد (٤) ، وتحددت مهمتها في نقل التراث الاسلامي نقلا صحيحا فلم يعد للفكر من عمل سوى تفهم النصوص واستظهارها واصبحت عطية التعليم قاصرة على الشرح لتيسير حفظ المتون " لان من حفظ المتون حاز الفنون (٥) " ، فاتخذ التدريس بالازهر صبغة تفسيرية (٦) ولم يتخذ اسلوب البحث العلمي القائم على التنقيب والتحقيق والتمحيص والموازنة ، وكيف يكون ذلك والاجيال الاسلامية ، بحسب العقيدة ، تسير القهقرى واخذة في التدني والتدهور (٧) .

---

١) الدكتور وافي ص ٤٥
٢) يونس وتوفيق ، الازهر ص ٨٨
٣) هي ورث دان ص ١
٤) عثمان امين ص ١٨
٥) علي مبارك ، خطط ج ٤ ص ٢٦
٦) هي ورث دان ص ٤٠
٧) الموسوعة الاسلامية ، " مقال الازهر " ؛ يونس وتوفيق ص ٧٧

وتحت تأثير الغلو في الشرح والايضاح كانت حلقة الطلبة تبتعد عن صلب الموضوع حتى تستغرق في الاحتمالات عابرة من متن الى شرح ومن شرح الى حاشية ومن حاشية الى تقرير وطالما انتهى الامر ان اصبح نهبة لوسواس المعاني الممكنة والخواطر الجائزة فلا تجزم بشيء "بل تترك الذهن حائرا مرتابا" (١) . وكانت هذه الطرائق العقيمة مضيعة للأعمار سدى في دراسات قليلة الجدوى (٢) .

اما تلك العلوم النعاطة على توسيع الآفاق والمدارك فلم يكن للأزهريين التفات اليها . ويحدثنا علي مبارك في خططه عن ذلك فيقول : "وليس لهم التفات لنحو التاريخ والجغرافية والفلسفة بل يرون ذلك بطالة وتضييعا للزمن بلا فائدة وينهون من يقرأ كتب الفلسفة ويشنعون عليه الغارة وربما نسبوه للكفر" (٣) .

وفي كلمات الشيخ محمد عبده ، اذ يصف الأزهر لمّا حاول القيام بأعباء اصلاحه ، غنية عن كل ايضاح لما كان يعم الجو الأزهري من فوضى ، يقول :

" ولكن مما يؤسف عليه انه لا نظام لها (لمدرسة الازهر) في دروسها ، ولا يسأل فيها التلميذ ايام الطلب عن شيء من اعماله ، ولا يبالي استاذه حضر عنده في الدرس ام غاب ، فهم ام لم يفهم ، صلحت اخلاقه ام فسدت ، ويمر عليه الزمان الطويل لا يسمع فيه نصيحة من استاذه تعود عليه بالصلاح في دنياه او دينه ، وانما يسمع منه ما يملأ القلب بغضا لكل من لم يكن على شاكلته في الاعتقاد حتى من بني ملته ، ويطبق على الذهن غفلته ، ويستفزه الطيش لتصديق كل ما يسمع ، اذا كان موافقا لمبدأ التعصب الجاهلي ، فاغلب الاوقات تمر على اهل الجد منهم في فهم مباحثات لبعض المتأخرين لا فائدة فيها ، ولا يتعلمون من الدين الا بعض المسائل الفقهية ، وطرفا من العقائد على نهج يبعد عن حقيقته اكثر مما يقرب منها . وجل معلوماتهم تلك الزوائد التي عرضت على الدين ، ويخشى ضررها ولا يرجى نفعها" (٥) .

---

١) هي ورث دان ص ٤٠

٢) عثمان امين ص ١٩

٣) وافي ص ٤٥

٤) علي مبارك ، خطط ج ٤ ص ٢٨

٥) رضا ج ٢ ص ٥٤١

في هذا الوسط قضى الشاب محمد عبده اثنتي عشرة سنة من حياته ولكن حسن الحظ اسعفه بطبعا يأوي اليه ربما يأتيه الفرج على يدى الحكيم المفكر جمال الدين الافغاني . ذلك انه كان في الازهر الى جانب الفقهاء الشرعيين الذين سبق وصفهم حزب آخر ينزع منزع التصوف والفلسفة وعلى رأسهم الشيخ حسن رضوان وبين مريديه بعض من أساتذة الازهر وطلابه كالشيخ حسن الطويل والشيخ محمد البسيوني والشيخ محمد المغربي وغيرهم وكان طبيعيا ان ينضم محمد عبده الى هذا الحزب لانه ((اقل الحزبين جمودا على القديم واقلهما نفورا من الجديد ، ثم لان التصوف كان اقرب الى قلب فتى لم يزل مريدا متحمسا للشيخ درويش (١))) .

حضر الطالب عبده مجالس العلم على شيوخ الازهر ولكنه ظل محافظا على عزلته وبعده عن الناس فكان يستغفر الله اذا كلم شخصا لغير ضرورة . وكان في المسامحة الصيفية يذهب الى قرية محلة نصر فيجد شيخه الصوفي قد سبقه اليها ويستمر معه بدارسه القرآن والعلم الى يوم سفره (٢) . وكان يدفعه الى تعلم الحساب والمنطق ومبادئ الهندسة ان في الازهر او في اى مكان آخر قائلا له :

" طالب العلم لا يعجز عن تحصيله في اى مكان (٣) " .

والحق ان الشيخ درويشا قد ترك منذ الاجتماع الاول اثرا حسنا في نفسية مريده اكسبه مناعة ضد الاستسلام لتعاليم الازهر وبعث فيه روح النقد لما عليه المسلمون في سلوكهم العملي وبذلك استطاع الفتى ان يقف من شيوخ الازهر موقف احتراس الى حد ما فلا يواظب على الدروس التي علم ضآلة فائدتها واذا

---

١) عثمان امين ص ١٨

٢) رضا ج ١ ص ٢٤

٣) رضا ج ١ ص ٢٤

حضرها استصحب كتابا آخر يطالع فيه كيلا يذهب وقته سدى (١) .

ولقي الشاب عبده بعض المتعة في دروس الشيخ الطويل لأنصافها ببعض المصرونة والجدة الا انه لم يجد فيها ما يسد حاجته الفكرية لأنسامها بطابع الاحتمال الذى لا يفضي الى يقين (٢) .

قضى محمد عبده خمس سنوات في الازهر وتنقل بين حلقات الفقهاء الرتيبة ومجالس الصوفية الممزوجة بالفلسفة ولم يجد في كل ذلك غذاء كافيا لفكره المشتاق الى الحقائق المعقولة الثابتة وقد مرّ على كتب الدراسة جميعا وطالع غيرها من ذخيرة الازهر فأخذ الملل يتسرب الى نفسه (٣) .

وفي هذه المدة كان الطالب يمارس التصوف . يقول : " كنت في اوائل مدة طلب العلم بعد مجيئي الى الازهر في عزلة عن الناس الا من استفيد منه علما او نصيحة ... والشيخ يقودني في سبيل الرياضة وقهر النفس على المكاره بالصوم تارة وبلبس الخشن والتعرض لانتقاد الناس تارة اخرى (٤) " .

وهكذا ظل هذا النشاط الفائض يتخذ مجرى العبادة والمجاهدة حتى اذا استوى العريد محمد عبده وعرف الشيخ فيه ذلك وتوسم منه عدم الرجوع عن الايمان وآنس منه الرسوخ في الدين اخذ ينتزعه من خلوته وعزلته ويدفعه لمخالطة الناس وارشادهم ودعوتهم الى الحق (٥) . وفي اثناء ذلك كان قد وصل الى القاهرة عالم افغاني سرى خبر شهرته فزاره محمد عبده وسوف نرى ماذا احدثته صحبة هذا الأستاذ الجديد في عقل الشاب المتطلع الى العلم والفهم .

---

١) رضا ج ١ ص ٢٥ ، عثمان امين ص ١٩

٢) رضا ج ١ ص ٢٥

٣) رضا ج ١ ص ٢٥

٤) رضا ج ١ ص ١٠٧

٥) رضا ج ١ ص ١٠٧

واذا كان الشيخ درويش قام بمهمة الارشاد الروحي والتوجيه النفسي الى عالم القدس لمريده فان الحكيم جمال الدين كما سنرى كان الامام العقلي له والموجه الاعظم لتفكيره وباعث نفحة الحرية في افكاره ولا بد لنا هنا من وقفة طويلة عند هذا المعلم الشهير نحاول فيها القاء النور على هذه الصفحة الجديدة من حياة الطالب محمد عبده في ظل استاذه واستكمال اعداده النهائي الذى اهله للخروج الى ميادين الاصلاح وبخاصة ميدان الاصلاح الديني الذى قصرنا بحثنا عليه في هذه الرسالة ولا يكون لنا ذلك الا بامعان النظر في شخصية جمال الدين وتعاليمه الحرة . فقد صحبه ثماني سنوات وكان بين التلامذة اقربهم روحا اليه . لقد " قرأ فيه السيد الذكاء وحسن الاستعداد وطيب القلب والحماسة للاصلاح ، وقرأ محمد عبده في استاذه سعة العقل ، وصحة الارشاد ، والسمو في النفس ، ونبل الغرض ، وشيئا جديدا لم يره في الازهر "(١).

. . . . . .

جمال الدين الافغاني

يرى الدكتور آدمز ان السيد جمال كان العامل الجوهري الاول في احياء حركة التجديد في مصر(٢). والبحث العميق في تعاليمه التي ورثها عنه الشيخ محمد عبده وفي روحه التي شبع قبسها في عقلية الناشئة المصرية يؤكد هذا الحكم .

تنشأته . — ولد جمال الدين في قرية اسعد اباد من بيت عظيم في بلاد الافغان وذلك سنة ١٢٥٤هـ (١٨٣٩)(٣) . قيل ان اباه ينتسب الى السيد علي الترمذى المحدث المشهور ويرتقي الى الحسين بن علي بن ابي طالب . وانتقل جمال مع ابيه الى مدينة كابل ولما بلغ الثامنة من عمره اجلس للتعلم فتلقى علوما جمة برع في جميعها .

---

١) احمد امين ص ٢٩٢

٢) آدمز ص ٧

٣) رضا ج ١ ص ٢٧ ، من ترجمة الشيخ محمد عبده له .

كان منها ما يتعلق بالعلوم العربية من نحو وصرف ومعاني وبيان وكتابة وتاريخ عام وخاص ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه واصول فقه وكلام وتصوف ومنها علوم عقلية من منطق وحكمة طبيعية سياسية ومنزلية وتهذيبية وحكمة نظرية طبيعيه والهية ومنها علوم رياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة ومنها نظريات الطب والتشريع .

يقول الشيخ عبده : " اخذ جميع تلك الفنون عن اساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة في تلك البلاد وعلى ما في الكتب الاسلامية المشهورة واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة من سنه ثم عرض له سفر الى البلاد الهندية فاقام بها سنة وبضعة اشهر ينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الاوروبية الجديدة واتى بعد ذلك الى الاقطار الحجازية لاداء فريضة الحج وطالت مدة سفره اليها نحو سنة وهو ينتقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر حتى وافى مكة المكرمة في سنة ١٢٧٣هـ (١٨٥٦) فوقف على كثير من عادات الامم التي مر بها في سياحته واكتنه اخلاقهم واصاب من ذلك فوائد غزيرة ثم رجع بعد اداء الفريضة الى بلاده ودخل في سلك رجال الحكومة "(١) . ثم على اثر اضطرابات سياسية رأى من الخير مفارقة بلاد الافغان فارتحل قاصدا الحج ومر بالهند فلم تأذن حكومتها للمعلم في بالاجتماع به الا على عين من رجالها فلم يقم اكثر من شهر ثم سيرته من سواحل الهند في احد مراكبها على نفقتها الى السويس فجاء الى مصر واقام بها اربعين يوما ثم تحول عن الحجاز عزمه وتعجل بالسفر الى الاستانة "(٢) .

في مصر :- ولما عاد جمال الى مصر بعد اضطراره الى مفارقة الاستانة "(٣) اول المحرم

---

١) رضا ج ١ ص ٢٨

٢) رضا ج ١ ص ٢٩ - ٣٠

٣) اثار الشغب عليه شيخ الاسلام في الاستانة معلنا انه شبه النبوة في مقال له بالصناعة انظر رضا ج ١ ص ٣٠-٣١ ؛ والحقيقة ان ذلك تهمة والمقال الذى القاه جمال الدين لا يثبت دعوى [illegible] شيخ الاسلام المذكور ولكن الحسد هو الذى حرك هذا الرجل ضد جمال .

حسن فهمي

١٢٨٨ هـ (١٨٧١) استعانه مساعي صاحب الدولة رياض باشا الى المقام في القاهرة واجريت عليه الحكومة وظيفة الف قرش مصري كل شهر نزولا اكرمته به لا في مقابلة عمل (١) . وكان قد اكتسب من طول خبرته وتجاربه المتنوعة بغضا للسياسة الانكليزية في الشرق وادرك سوء العاقبة التي ترصد البلاد الاسلامية ان لم تنهض من كبوتها وتجتمع على مصالحها .

واستطاع جمال ان يجتذب نفسية الشاب محمد عبده ببعض دروس تكلم فيها عن تفسير بعض ايات القرآن تفسيرا صوفيا والتفسير والتصوف كانا ركنين لثروة الطالب العقلية منذ لقي شيخه الاول في القرية يوم كان هاربا من العلم . فلا عجب اذا هرع صاحبنا الى هذا المعلم الجديد الذى اثبت براعته في هذين العلمين واضاف الى ذلك لهجة الجزم واليقين في احكامه خلافا لما جرى عليه الازهر من وهن الترجح والاحتمال . لذلك التزم الطالب الازهري صحبة السيد جمال وتأثر به وبدأ يهتم بعالم الواقع ويلتفت الى الامور العامة ويقلع عن عالم الخيال الذى غرق فيه (٢) ولم تكن دروس جمال الدين في القاهرة مقصورة على التفسير والتصوف ولكنها اتسعت واتخذت مجاري كثيرة غيرها وافاض على طلبته من حواء عقله واصبغ عليهم من روحه الثائرة الحرة حلة من حلل الثورة والتجدد والقى في بصيرتهم قبسا من بصيرته اراهم بها سوء حالهم ثم دفعهم الى ميادين الاصلاح (٣) وجودهم انشاء المقالات في الصحف والقاء الخطب على اعواد المنابر .

وقد اخبر الشيخ عبده في اواخر حياته انه قرأ على السيد جمال كتبا عدة في موضوعات مختلفة منها التصوف والمنطق والفلسفة ومنها الهيئة والاصول والتوحيد (٤) . على ان الطريقة التي كان جمال يترسمها في دروسه احدثت في عقول تلامذته تحررا وتفتحا وربت فيهم استقلال الفكر في الفهم (٥) . ولم يكن محمد عبده معتدلا في تأثره باستاذه وانما ظل يكبره ويمجد ذكره وعقله حتى قال فيه :

---

١) رضا ج ١ ص ٣١ — ٣٢
٢) رضا ج ١ ص ١٠٦
٣) زيدان ، مجلة الهلال م ١٣ (١٩٠٥) ص ٥٥٥ ، رضا ج ٣ ص ١١١
٤) رضا ج ١ ص ٢٦
٥) احمد امين ص ٢٩٢ و ص ٦٥ — ٦٦

" وبالجملة فاني لو قلت ان ما اتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو اقصى ما قدر لغير الانبياء لكنت غير مبالغ "[1] .

تعاليمه وآراؤه

١ — تحرير العقل =

كان السيد جمال الدين يرمي الى تحرير الفكر الديني من قيود التقليد الباعث على الجمود فهو يؤمن بالاصول الواردة في القرآن ويترك لعقله الحرية في الفروع[2] وهو الذي حرر فكر تلميذه محمد عبده وحفزه على الاجتهاد في الدين . ذكر في مجلسه مرة قول للقاضي عياض وتمسك به راووه فقال السيد جمال : " يا سبحان الله ان القاضي عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله ، وتناوله فهمه ، وناسب زمانه — فهل لا يحق لغيره ان يقول ما هو اقرب للحق وأوجه ، وأصح من قول القاضي عياض وغيره من الائمة وهل يجب الجمود والوقوف عند اقوال اناس (هم انفسهم لم يقفوا عند حد اقوال من تقدمهم) قد اطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا وقالوا ، وادلوا دلوهم في الدلاء في ذلك البحر المحيط من العلم ، واتوا بما ناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم "[3] .

ولما سمع من الحاضرين قولهم بسد باب الاجتهاد انفجرت ثورته العقلية وصاح : " ما معنى باب الاجتهاد مسدود ؟ ! وبأي نص سد باب الاجتهاد ؟ ! اوأى امام قال لا ينبغي لاحد من المسلمين بعدى ان يجتهد ليتفقه بالدين ؟ اوان يهتدى بهدى القرآن ، وصحيح الحديث ، اوان يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما ، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات الزمان واحكامه ؟ ولا ينافي جوهر النص ؟[4] "

ويقرر اخيرا بكل جرأة ان " اولئك الفحول من الائمة ، ورجال الامة اجتهدوا واحسنوا ولكن لا يصح ان نعتقد انهم احاطوا بكل اسرار القرآن ، او تمكنوا من تدوينها في

---

١) رضا ج ١ ص ٣٤
٢) احمد امين ص ١١٣
٣) المخزومي ص ١٧٧
٤) المخزومي ص ١٧٧ — ١٧٨

كتبهم والحقيقة انهم مع ما وصلنا من علمهم الباهر ، وتحقيقهم واجتهادهم ، ان هو بالنسبة الى ما حواه القرآن من العلوم ، والحديث الصحيح من السنن والتوضيح الا كقطرة من بحر ، او ثانية من دهر والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده (١) .

ويدعو جمال الدين الى تحطيم قيود الفكر واطلاق سراح العقل بكل حمية ويحارب التقيد بالمألوف والتقليد الاعمى العاري من الحجة والبرهان (٢) .

ويعتقد جمال ان اساس الاديان الثلاثة التوحيد فان ورد في بعضها ما يوهم في ظاهره انه مخالف لهذا الاساس وجب الرجوع الى التأويل (٣) .

اما رأيه فيما يتعلق بالدين والعلم فكان يقرره في ما يلي : " ان الدين لا يصح ان يخالف الحقائق العلمية ، فان كان ظاهره المخالفة وجب تأويله ، وتدعم الجهل وتفشي الجمود في كثير من المتدينين برداء العلماء ، حتى اتهم القرآن بانه يخالف الحقائق العلمية الثابتة ، والقرآن بريء مما يقولون ، والقرآن يجب ان يجل عن مخالفة العلم الحقيقي خصوصا في الكليات (٤) " .

وتأثره بابن خلدون كان كبيرا يمجد فيه خروجه على الخرافات وتدقيقه وتمحيصه للأخبار ويقول في الثناء عليه : " فالعالم كله عالة على فضل ابن خلدون في حكمة التاريخ اذ هو الواضع لها ولا منازع (٥) " .

٢ - رأيه في الدين =

يعتقد جمال الدين ان الفضائل في الامم هي دعائم وجودها وبقائها وان التخلي عنها نذير دمارها وهلاكها وتلك سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الامم ولا تتبدل بتبدل الاجيال (٦) . وبعد احصائه لعوامل النهوض بالامم واجمالها في تحرير العقل من الخرافات والاوهام وتوجيه النفوس وجهة الشرف والطموح ودعم العقائد بالادلة والبراهين

---

١) المخزومي ص ١٧٨ - ١٧٩
٢) المخزومي ص ٢٠٩
٣) المخزومي ص ٢٢٠
٤) احمد امين ص ١١٤
٥) المخزومي ص ١٧٦
٦) المخزومي ص ٣٠٧-٣٠٨

وتهذيب الافراد وتأديبهم يقول ان هذه الشروط كلها متوافرة في الاسلام وهو لذلك الدين الوحيد الذى تتم به سعادة الامم (١) .

والعرب في رأيه مدينون بقيامهم في القرن السابع الى الاسلام الذى جمع كلمتهم وقضى على تناحرهم في ما بينهم . ويرى ان السبب الاعظم والفاعل الاكبر في سقوطهم بعد ذلك " هو اهمال ما كان سببا في النهوض والمجد وعزة الملك وهو ترك حكمة الدين ، والعمل بها وهي التي جمعت الاهواء المختلفة والكلمة المتفرقة وكانت للملك اقوى من عصبية الجنس وقوته " (٢) .

وصرح جمال بكل تأكيد ان العلاج الامة في رجوعها الى اسس دينها واخذها باحكامه على ما كان في بدايته ويدل على ذلك قوله :

" من يعجب من قولي ان الاصول الدينية الحقة ، المبرأة عن محدثات البدع تنشىء للأمم قوة الاتحاد واتتلاف الشمل ، وتفضيل الشرف على لذة الحياة ، وتبعثها على اقتناء الفضائل ، وتوسيع دائرة المعارف ، وتنتهي بها الى الغاية في المدنية ، فأن عجبي من عجبه اشد ، ودونك تاريخ الامة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات واتيان الدنايا والمنكرات حتى جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها ونور عقلها وقوم اخلاقها وسدد احكامها فسادت على العالم وساست من تولته بسياسة العدل والانصاف " (٣) .

وعلى هذا الاساس من الاصلاح كان جمال الدين يرمي الى توحيد الامة الاسلامية وازالة الفوارق بين فرقها وعلى ذات المبدأ الديني كان يأمل تقريب الاديان الثلاثة وتوحيدها كلها في الاسلام لانه كما يراه مصدق لها كلها ومتم لحلقاتها .

هذه هي الجامعة الاسلامية في الشرق التي دعا اليها وخاب امله في مساء حياته اذ لم يفلح في تحقيقها ولكنه ابقى في العالم الاسلامي قبسا من روحه يتجلى في المعاني التي خلدها بعده والتي يقول عنها احمد امين انها كالمادة لا تفنى ولا تنعدم (٤) .

---

١) الرد على الدهريين ص ٨٧ — ٩٧
٢) المخزومي ص ٢٥٧
٣) المخزومي ص ٣٤٠ — ٣٤١
٤) احمد امين ص ٨٦

واخيرا كان جمال عجولا يتوسل الى اغراضه بإلهاب الشورات (١) . ويرى ان كل حركة اصلاحيه لا تتم ما لم يبعد العدو الراصد العقوض لكل ركن يعمر ولكل زاوية تبنى .

واصطحاب الشيخ محمد عبده لهذا الاستاذ ما يقرب من عقد من السنين عاد عليه بالمعرفة الغزيرة والفكرة الوقادة والروح الحرة الطموحة شوقا إلى الاصلاح الا ان استعداده الخاص به واستقلاله الذاتي في رأيه وجهاده شطر الاصلاح العقلي المتدرج وحرفاه عن اتجاهات استاذه السياسية الثورية الجانحة نحو الطفرة (٢) . فكان محمد عبده كثيرا ما يميل الى الحكمة في معاملة الناس وينزع الى المجاراة في حدود الحق كما يراه على حين ان استاذه مني بالحدة مما دعا تلميذهما محمد رشيد رضا الى القول عنهما :

" ان جمال الدين رجل دين وان غلبت عليه السياسة . والشيخ محمد عبده رجل سياسة وان غلب عليه الدين (٣) " .

وسرعان ما ظهرت آثار السيد جمال الدين في عقلية تلميذه المتحولة عن مجاري التقليد فاخذ يدعو رفاقه في الازهر الى استاذه الجديد الذى اكبر فيه غزارة العلم المتنوعة . وتظهر آثار الفلسفة التي اخذها عنه في مقالاته المبكرة التي اخرجها الى الجمهور وهو بعد طالب ازهري فرسالة الواردات (٤) تنم عن تصوف ممزوج بآراء فلسفية كلامية ، ولهجة الشاب فيها تحولت عن مسحة الخجل الذى كان سائدا عليه قبيل انخراطه في صحبة جمال واضمحلت في سطور تلك الرسالة بقام مقامها حماس المريد المفعم باعظام استاذه . واستعراضنا لبعض قطع منها يجلو لنا تركيب ميول الفتى الصوفية ونزعاته الفلسفية .

يقول في مقدمتها : " اما بعد فيقول محمد عبده بن عبده بن حسن خير الله ، الناشي باقليم مصر بخطة البحيرة بقرية تسمى محلة نصر خادم خدمة الحكمة ، المعرض عن نحو الكلام والكلمة ، المتخلي عن قيد لباس الطوائف ، الى فضاء اقتناص صيد المعارف . اني كنت مشغلا بطلب العلوم ، فبينما انا حول الرياض احوم ، اذ عثرت باثار العلوم الحقيقية ، فشغفت بها حبا ولكن لم اجد من هي له طوبة ، فحرت في امري واخذت اجيل فكري ، وكلما سألت اجابوني بان الاشتغال بها حرام ، اوقد نهى عنها علماء الكلام ... وبينما انا كذلك اذ اشرقت شمس الحقائق ... بوجود حضرة الحكيم الكامل

---

١) آدمز ص ١٥ ٢) محمد رفعت ص ٢٨٨ ٣) رضا ج ١ ص ن من مقدمة رضا .
٤) رضا ، الطبعة ١ (١٣٤٤هـ) ص ٩-٢٥

والحق القائم استاذنا السيد جمال الدين الافغاني ، لا زال لنطار العلوم جانيا[1] .

وفي كلامه على حالة النفس بعد الموت ذكر آراء مختلفة ثم انتهى الى رأي المتصوفين فقال :

" ومن قائل وهم الصوفية ان الحق لما نادى شؤونه على لسانه النبوي الى الدخول في حضرته امرهم ان يتلبسوا عند ذلك بملابس تليق بتلك الحضرة وان يتخلوا عن غير ذلك فمن فهم الرمز وحل اللغز وفني بالفناء المطلق واتصل بحضرة الجود ، ولم ير الا نفس الوجود فلذته نور الوجود ، وهو (ما) [كذا] لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب احد ... ومن اعرض عن الطريق بالمرة ، وشغل بالاغيار عن تلك الكرة فهو لا يزال معذبا بظهوره ، متالما بفجوره ، فاذا هبت عليه نسمة من نسمات الرحمة واللطف كان العذاب عذبا والرحيم ربا[2] " .

ويبرز عقيدته في وحدة الوجود في قوله : " ولكن نحن نقول ليس وجود الا وجوده ولا وصف الا وصفه فهو الموجود وغيره المعدوم قال الامراء الاولون رضي الله عنهم ابو بكر وعمر وعثمان وعلي ما رأيت شيئا الا ورأيت الله قبله او بعده او فيه او معه ، كل واحد ينسب الى واحد منهم ولا يقعن في وهمك ان هذا قول بالحلول فان الحلول انما يكون بين وجودين احدهما حال في الآخر ونحن نقول لا وجود الا وجوده[3] " .

ويذكر مصطفى عبد الرازق احد تلامذة الشيخ عبده فيما بعد ان هذه الرسالة كانت سببا لغضبة الشيخ عليش احد المدرسين المتصلبين في الازهر وان حاشيته على شرح العقائد العضدية كانت السبب الاكبر في احكام الغضب[4] .

وقد اتفق ان قرأ الطالب الازهري محمد عبده لبعض الطلاب في الازهر شرح العقائد النسفية للتفتازاني وغير ذلك من الكتب التي لم تكن تقرأ في الازهر من قبل الشيوخ وفتن الاذكياء بحسن بيانه وقوة فكره وحدة ، اناس منهم فاوقعوا بينه وبين الشيخ عليش الفتنة واصطدم الشاب بالشيخ بتهمة انه رجع مذهب المعتزلة على مذهب الاشعرية

---

١) رضا ج ٢ الطبعة ١ (١٣٠٤هـ) ص ٩

٢) المصدر نفسه ص ٢٥

٣) المصدر نفسه ص ١٣

٤) عبد الرازق ص ٦٤

فلم يكن منه الا ان قال :

" اذا كنت اترك تقليد الأشعري فلماذا اقلد المعتزلي ؟ اذا اترك تقليد الجميع واخذ بالدليل "[1] .

ونرى هنا تحوله الفكري في اجلى مظاهره بعد مصاحبته للأستاذ المجدد جمال الدين .

ظل الطالب الازهري مواصلا دروس السيد جمال حتى سنة ١٨٧٩ حيث نفي الأستاذ من مصر على اثر عزل الخديو اسماعيل واعتلاء ابنه العرش ولما كان جمال يغادر مصر قال لمن ذهب يودعه : " قد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لعصر عالما "[2] .

وكان الشيخ محمد عبده قد احرز شهادة العالمية من الازهر سنة ١٨٧٧ ولما يزل جمال في مصر . ولقي في اثناء الامتحان عنتا من الشيوخ الازهريين الذين كانوا يناهضون تعاليم جمال الدين الحرة وينقمون على محمد عبده ملازمته له ولكن حسن اجابته شفعت له عند الشيخ العباسي شيخ الجامع الازهر وقتئذ ورئيس لجنة الامتحان فاجازوه[3] .

---

١) رضا ج ١ ص ١٣٤

٢) زيدان ، مشاهير الشرق ج ١ ص ٢٨١

٣) رضا ج ١ ص ١٠٢ - ١٠٣

الفصل الثاني

اصلاحه الديني

كان من جراء الاتصال الفكري بين مصر وأوروبا في القرن التاسع عشر ان سرى في عقيدة الجيل الطالع روح جديدة بصّرتهم ان العقل هو دعامة كل حقيقة اليه يلجأ عند كل نائبة لحل المشكلات وهو الحكم العدل في شؤون الحياة والفصل فيها .

هذا التيار الجديد تسرب الى مصر من خلال الشباب الذين درسوا في جامعات الغرب وتأثروا بأنماط البحث فيها وانتشر هذا الاتجاه في وادي النيل عن طريق المدارس الرسمية التي اسسها محمد علي باشا وحفيده اسماعيل فكان لهذا التجدد الفكري اثر بارز اذ كان مصدر التنازع ، كما مرّ في الفصل السابق ، بين الثقافة العلمية الحديثة والتقليد المهيمن على الحياة الدينية منذ عصور بعيدة . وكان ما لوّحت اليه من مدافعة بين النقل والعقل ، وخصام بين الازهر معقل التقليد الديني ونزعات التعليم المستحدث الحكومي .

على ان انصياع اهل السنة الى سلطان التقليد والسير بمقتضى احكام السلف المتقدمين ما يقرب من عشرة قرون (١) كان له اثر ظاهر في مجرى الفكر الاسلامي . ذلك انه باعد رويدا رويدا بين المسلمين ومصادر دينهم وأخذوا يكتفون بما جاء عن السلف دون إعمال العقل ولا استقصاء الدليل . وأصبح القرآن يتلى للتبرك لا للتدبر والناس يتبع بعضهم بعضا . وضعفت الروح الدينية على اثر الانهماك وراء الشيوخ دون التفكر والروية . فدخل في مفاهيم العامة صور جديدة للتوسل ومعان محرّفة للشفاعة وكان ذلك باعثا لبعض المفكرين ان يقوموا في هذه الفترة بشن الغارة على شوائب الشرك المستجدة اخص بالذكر منهم ابن تيمية المشهور وتلميذه ابن القيم واخيرا

---

١) جب ، في وجهة الاسلام ص ٤٨

(١)

محمد بن عبد الوهاب في الحجاز .

ادرك الشيخ محمد عبده في ختام القرن الماضي ان العقلية المصرية المنحطة في هذه الفوضى لا يكفي لاصلاحها ثورة سياسية فخالف في ذلك استاذه جمال الدين وان اتفق معه على ضرورة اتخاذ الاسلام اساسا للاصلاح ، وآمن ان لا خلاص من هذه البدع الطارئة على عقول المسلمين الا بتحريرهم من التقليد عدو التطور والارتقاء . لذلك قال :

" ارتفع صوتي بالدعوة الى امرين عظيمين - الاول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه الى ينابيعها الاولى واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شطحه وتقلل من خلطه وخبطه "(٢) .

ولهذا آمن بأن في ثورة الفكر على الاوضاع العقلية البالية خير باعث على كل تحرر . وعكف على الاسلام يفكر في اصوله ومبادئه ويخرجها الى الناس في ثوب جديد لحمته العقل وسداه الحجج المنطقية ليلائم ناشئة العصر ويناسب روح الزمن .

وقلما يجد الباحث صفحة من تراث هذا العصر لا يشير فيها الى تقريع المقلدين . ونواه اذا قرأ القرآن نظر اليه من زاوية العقل كأنه قد قبع في هذه الزاوية وكتب على نفسه ان لا يغادرها . وخير دليل على ذلك ما قاله في القرآن معجبا :

" واعتضد بالدليل حتى في باب الادب فقال (٤١ : ٣٤ ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) وتأخى العقل والدين لاول مرة في كتاب مقدس على لسان نبي مرسل ، بتصريح لا يقبل التأويل "(٣) .

---

١) احمد امين ص ٩ - ٢٥

٢) رضا ج ١ ص ١١

٣) رسالة التوحيد ص ٩

تحريره للفكر الديني :—

رأى محمد عبده ان اخذ العقائد بالسلطة دون ما تعقل لادلتها لا يفضي الى اليقين وان الادراك الراسخ هو اساس كل اعتقاد فقال :

" الادراك الراسخ في النفس الذي يكون هيئة ثابتة لها ، وملكة تصدر عنه الافعال بدنية كانت او فكرية لها اثر واقعي لا مجرد الاثر التصوري هو المعروف في الاصطلاح بالاعتقاد ، لانه بانطباعه في جوهر الروح المدرك كأنه عقد في النفس بحيث يعسر انحلاله وزواله ، والنفس بكثرة مزاولته وتكرار انفعالها به قد اعتقدته وارتبطت به "(١) .

اما دعوى الاعتقاد بعبداً ومخالفته في العمل فذلك ، عنده ، دليل على فساد الدعوى وبطلانها وعلى ان هذا الاعتقاد ان هو الا محض تصور موهوم يزول عند انفعال النفس كأن لم يكن ويعرض هنا بالمسلمين المقلدين فيقول : " ومن هذا القبيل احوال كثير من الناس يزعمون انهم يعتقدون شيئا ويعلمونه حق العلم ، بل ويدافعون عنه ، ولكنهم يعطون على خلاف ما يقتضيه مع زعمهم التيقن بأن النجاة في اتباعه ، والهلاك في العدول عنه ، وقد تبين انهم في الحقيقة لا يعلمون "(٢) .

والحق ان ثورته على التقليد كانت داوية اثارت عليه الدوائر المحافظة ولكن اعتقاده بالعقل والدين وانهما صديقان كل صدق للآخر شق له طريق الثبات والمثابرة على هذه الدعوة الى ان طرحه المرض على فراش الموت فانفجر ذلك الاعتقاد شعراً :(٣)

ولست ابالي ان يقال محمد ... ابل ام اكتظت عليه الطاحم
ولكن دينا قد اردت صلاحه ... احاذر ان تقضي عليه العمائم

وتظهر حرية العقيدة لديه بأجلى مظاهرها حين يطالب بالدليل ويصور مرض المسلمين الذين يسعون الى الادلة بعد اعتقادهم صحة الامور . يقول : " التاثت قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد فهم يعتقدون الامر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه

---

١) رضا ج ٢ ص ١٩٠
٢) رضا ج ٢ ص ١٨٩
٣) المنار م ٨ ص ٩٠٠ - ٩٠١

ولا يريدونه الا موافقا لما يعتقدون ، فان جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا في مقاومته ، وان ادى ذلك الى جحد العقل برمته ، فأكثرهم يعتقد فيستدل ، وقلما تجد بينهم من يستدل فيعتقد ، فان صاح بهم صائح من اعماق سرائرهم (ويل للخابط ، ذلك قلب لسنة الله في خلقه ، وتحريف لهديه في شرعه) عرتهم هزة من الجزع ، ثم عادوا الى السكون ، محتجين بان هذا هو المألوف وما اقمنا إلا على معروف ، ... " (١) .

بهذا قام الشيخ محمد عبده بمهمة الاصلاح الفكري في الاسلام وخاف على العقيدة ان تنهار بسبب طغيان الفكر الحديث وتهافت المقلدين بين يديه او فرارهم من وجهه واعتزالهم الحياة . وأدرك ان الدراسة في اوربة قد خضعت بعض ذهبها العقلية عقيدة كثير من الشبان اوقفت عليها (٢) فاخذ على عاتقه نصرة الاسلام بدعم عقائده واذاعة حججه وبراهينه . وفي هذا الصدد يقول جب : " ومضت السلفية الحرجة التي كانت تهدد الاسلام في آخر القرن الماضي ، واكبر الفضل يرجع للشيخ محمد عبده وتلاميذه ، وكان من اثر جهوده التي فرغ لها حياته ان ازال العوائق التي كانت تشل حركة الاسلام وتجذبه القهقرى وان اطلق الهمم الفتية من عقالها للعمل على التوفيق بين الاسلام وأنظمته وبين الحياة الجديدة في بلاد الاسلام " (٣) .

لقد خشي الشيخ محمد عبده ، اذا استمر التقليد في المسلمين ، ان لا يستطيع محو البدع وكيف تمحى والعقل نائم والهوى يقظان . فلا بد اذا من ابطال سلطان الاتباع في عصر شاع فيه الابتداع ، ولا بد من اسقاط التقليد في زمن التفكير الحر والعقل المتفتح نحو الاستقلال والاستدلال ولا مندوحة عن النقد اللاذع للمقلدين لاجتذاب الاحرار المفكرين . كل هذا مر بذهن الشيخ عبده فاندفع يشن غاراته ويلقي قنبلاته على الذين لا يعقلون . يقول :

---

١) رسالة التوحيد ص ٧٧

٢) ك . ك . برج ، في وجهة الاسلام ص ١٧١

٣) جب ، في وجهة الاسلام ص ٢٢٣

" فان التقليد كما يكون في الحق يأتي في الباطل ، وكما يكون في النافع يحصل في الضار ، فهو مذلة يعذر فيها الحيوان ، ولا تجعل بحال الانسان "[١] .

ولقد خلّد الشيخ في هذا المضمار قطعا ادبية رائعة هي بذور للنهضة العقلية . يقول : " انحى الاسلام على التقليد ، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر ، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس ، واقتلعت اصوله الراسخة في المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم واركان في عقائد الامم "[٢] .

" صاح بالعقل صيحة ازعجته من سباته ، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها . كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق ، خلصت اليه هينمة من سدنة هياكل الوهم (ثم فان الليل حالك ، والطريق وعرة والغاية بعيدة ، والراحلة كليلة ، والازواد قليلة)[٣] .

" علا صوت الاسلام على وساوس الطغام ، وجهر بان الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على ان يهتدي بالعلم والاعلام ، — اعلام الكون ودلائل الحوادث — وانما العلماء منهجون ومرشدون والى طريق البحث هادون .

" صرح في وصف اهل الحق بانهم (٣٩ : ١٨ الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه) فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ، ليأخذوا بما عرفوا حسنه ، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه "[٤] ...

" صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء " ، وما توارثه عنهم الابناء " ، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على ان السبق في الزمان ، ليس آية من آيات العرفان ؛ ولا مسعيا لعقول على عقول ، ولا

---

١) رسالة التوحيد ص ٢٧

٢) رسالة التوحيد ص ١٨١

٣) رسالة التوحيد ص ١٨٢

٤) رسالة التوحيد ص ١٨٢

لاذهان على اذهان ، وانما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان ... وان ابواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق ان داأب ..." (١)

" فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان استعبده ، ورده الى مملكته ، يقضي فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع في ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ، ولا حد للعمل في منطقة حدودها ، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها .

" بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه امران عظيمان طالما حرم منهما ، وهما استقلال الارادة واستقلال الرأي والفكر وبهما كملت انسانيته " (٢) .

وليس الدين في نظر الشيخ عبده الا مكملا للعقل وقوما فهو كما سّر محسن للعقل ينقذه من الشطط ويريحه من خلطه وخبطه اذ انه وحده لا يتمكن من الوصول الى ما فيه سعادة الامم ولا بد له لاجل ذلك من مرشد الهي (٣) يعاضده في مواعظه معاضدة الناصح الهادي للرجل الرشيد ولا يكبله بطامع من حديد (٤) .

هذا الفهم للاسلام ينم عن فكر قوي يتصور الجوهر ولا يقف عند الصور وهذه الروح التي تشيع في دعوة الحرية دليل على ثقة الرجل بفكره ودينه . فلا عجب اذا قال جب عنه : " كان محمد عبده واسع النظر مستقلا سامي العقل " (٦) .

ويعد ان قرر الشيخ عبده قصور العقل المستقل عن ادراك السعادة وجعله الحكم في فهم الدين والانتفاع بهديه اراد ان يقدم للعقل البشري الحر ، المستعد لتلقف الحق وهضم المعارف الصحيحة ، دين الاسلام على نحو جديد وفي حلة جديدة .

---

١) رسالة التوحيد ص ١٨٣
٢) رسالة التوحيد ص ١٨٤
٣) انظر ص ٢٣ من هذا البحث
٤) رسالة التوحيد ص ١٤٨
٥) رسالة التوحيد ص ١٩٥
٦) جب ، الاسلام ص ١٧٦

وبعد طويل الهدم لسلطان التقليد قام يكشف للناس عن سلطان العقل الذى اراده الله دعامة لدينه كما اكد الشيخ عبده . وذلك هو الدليل والآيات البينات .

بدأ الشيخ عبده بناءه بتحليل الاسلام الى دعوتين اساسيتين هما دعوة الى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ودعوة الى التصديق برسالة محمد (١) .

صرح محمد عبده ان الاسلام لم يعول في دعوته الاولى الا على العقل البشرى وحده فنبهه ووجهه الى النظر في الكون وما ساده من نظام وهيمن عليه من احكام وشاع في ارجائه من اتقان ليستدل العقل على وجود صانع واحد اكدت وحدة النظام ودقته في الاكوان تفرده وعظمته وحكمته (٢) .

واشار القرآن في الانسان هاجع فكره وحرك فيه سنته الفطرية في الاستدلال بالآثار على المؤثر وبالاسباب على المسبب . فلفته الى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار وجريان الرياح لمنافع الناس في تسيير زوارقهم وجمع السحاب مما يبعث على هطول الامطار ، فحياة الزرع والضرع لتمكين حياة الانسان على الارض ، ليدله على رحمة الخالق وساطع وجوده (٣) . وكر الكتاب على العقل ليزيح عنه اوهام الشرك ويثبت له الوحدانية فقال :

" لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا (٤) " .

هذا الايمان بالله لا يصح في رأيه ان يؤخذ من كلام النبوات ولا الكتب المنزلة انما العقل هو دعامته الوحيدة وكيف يكون ايمان بالرسالة او الكتاب الا بعد الايمان بوجود الله يجوز ان يرسل نبيا وينزل كتابا (٥) ؟!

على هذا النمط من العرض المنطقي بسط الشيخ عبده حجاجه ودعمه للدعوة الاولى

---

١) الاسلام والنصرانية ص ٦٥
٢) الاسلام والنصرانية ص ٦٥
٣) الاسلام والنصرانية ص ٦٥ — ٦٦
٤) الاسلام والنصرانية ص ٦٧
٥) الاسلام والنصرانية ص ٦٨ — ٦٩

اما الدعوة الثانية فهي التي يحتج فيها الاسلام بخارق للعادة تاييدا لصدق رسالة محمد . هذا الخارق في رأى الشيخ هو القرآن " الذى تواتر خبره ، ولم ينقطع اثره " (١) . ويعتقد انه هو الدليل وحده ، وما عداه مما يدرج في الاخبار والمعجزات سواء صح سندها او انقطع او كان ضعيفا او واهيا فليس في رأى المسلمين الا زيادة في تقوية الاعتقاد لمن حصل اصله (٢) .

(ومعجزة القرآن في نظر محمد عبده " جامعة من القول والعلم ، وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم) ، فهي معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضي فيها ، واطلقت له حق النظر في احنائها ... فهي معجزة اعجزت كل طوق ان يأتي بمثلها ... اما معجزة موت حي بلا سبب معروف للموت ، او حياة ميت ... فهي مما يجمد لديه الفهم . وانما يأتي بها الله على يد رسله لأشكال اقوام غلبهم الوهم ولم يض" عقولهم نور العلم " (٣) . وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات " .

(ويؤكد اخيرا ان القرآن لم يطالب احدا بالايمان به بمجرد التسليم على رغم من العقل . ومن هاتين الدعوتين يستخلص محمد عبده الاصل الاول للأسلام قائلا انه " النظر العقلي لتحصيل الايمان " (٤)). وأن هذا النظر هو عند الاسلام " وسيلة الايمان الصحيح ، فقد اقامك منه على سبيل الحجة وقادك الى العقل ، ومن قادك الى حاكم فقد اذعن الى سلطته فكيف يمكنه بعد ذلك ان يجور او يثور عليه " (٥) .

واراد الشيخ عبده ان يوفق اخيرا بين العقل والنقل ليجعل القرآن أيسر قبولا لدى اصحاب الرأى واهل الفكر فطلع على الناس باصل ثان للأسلام قال فيه :

---

١) الاسلام والنصرانية ص ٦٩
٢) الاسلام والنصرانية ص ٦٩
٣) الاسلام والنصرانية ص ٧١ — ٧٢
٤) الاسلام والنصرانية ص ٧٢
٥) الاسلام والنصرانية ص ٧٢ — ٧٣

" بتقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض " وصرح بذلك في قوله :

" اتفق اهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ينظر اليه على انه اذا تعارض العقل والنقل اخذ بما دل عليه العقل ، وبقي في النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول ، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الامر الى الله في علمه ، والطريق الثانية : تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما اثبته العقل "(٢) .

ولا يستطيع الباحث الحكم على هذا الاصل الذى جاء به محمد عبده لما غطاه به من غموض وشمول فان النقل والشرع يتضمنان الكتاب المنزل وغيره من مصادر الدين ولا بد من الرجوع الى مفهوم التأويل عنده في مكان آخر استجلاء لما اراد . ففي رسالة التوحيد يقرر هذه المسألة بقوله : " وانما على العقل بعد التصديق برسالة نبي ، ان يصدق بجميع ما جاء به ، وان لم يستطع الوصول الى كنه بعضه ، والنفوذ الى حقيقته ، ولا يقضي عليه ذلك بقبول ما هو ممن باب المحال ، المؤدى الى مثل الجمع بين النقيضين او بين الضدين في موضوع واحد ، في آن واحد ، فان هذا مما تتنزه النبوات عن ان تأتي به ، فان جاء ما يوهم ظاهره ذلك في شيء من الوارد فيها ، وجب على العقل ان يعتقد ان الظاهر غير مراد ، وله الخيار بعد ذلك في التأويل ، مسترشدا بقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه في كلامه ، وفي التفويض الى الله في علمه "(٣) .

وهنا يتضح تساهل الشيخ محمد عبده ومرونته الفكرية في حدود الايمان وسنناقش ذلك في الفصل الاخير من هذه الرسالة .

ويحدد علاقة العقل بالدين تحديدا دقيقا في قوله : " والذى علينا اعتقاده ان الدين الاسلامي دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد ، العقل من اشد اعوانه ، والنقل من اقوى اركانه "(٤) فلا بد للنقل من عقل يفهمه والا انقطع نفعه عن

---

١) الاسلام والنصرانية ص ٧٣
٢) الاسلام والنصرانية ص ٧٣ ـ ٧٤
٣) رسالة التوحيد ص ١٤٩
٤) رسالة التوحيد ص ٢٧

الانسان وحرم من هدايته . على ان العلاقة بينهما لا يمكن ابدا في رأيه ان تكون سلبية ولا سبيل للصدام مطلقا فاما ان يفهم العقل النقل ويستسيغه واما ان يعلو النقل احيانا على الفهم ولكنه لا يكون في نظر العقل محالا البتة . فهو رغم تصوره عن فهمه لا يستطيع ابطاله بالادلة والبرهان فالنقل اما مقبول عقلا او غير مستحيل عقلا وبعبارة اخرى اما قاطع واما جائز . يصور في ذلك في قوله :

" اجمع المسلمون — الا من لا ثقة بعقله ولا بدينه — على ان الدين ان جاء بشيء قد يعلو على الفهم ، فلا يمكن ان يأتي بما يستحيل عند العقل " (١) .

بمثل هذا التسامح دعا الشيخ عبده الى الاسلام وقد رجاه في احياء الدين على تنشيط العقول وتحرير الافكار من القيود الكثيرة التي كان يفرضها سلطان التقليد وصرح بذلك في تفسيره للآية (٢٤٢ سورة ٢) التي تنتهي بقوله تعالى " كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون " فراح يعلق على العقل بقوله : " وأين اهل التقليد من هدى القرآن ؟ هو يذكر لنا الاحكام بأسلوب يعدنا للعقل ويجعلنا من اهل البصيرة وينهانا عن التقليد الاعمى وهم يأمروننا بأن نحرص على كلامهم وكلام امثالهم صما وعميانا ، ومن حاول منا الاهتداء بالكتاب العزيز وما بينه من السنة المتبعة اقاموا عليه النكير ، ولعله لا يسلم من التبديع والتكفير ، يزعمون انهم بهذا يحافظون على الدين وما اضاع الدين الا هذا فان بقينا على هذه التقاليد لا يبقى على هذا الدين احد فاننا نرى الناس يتسللون منها لواذا واذا رجعنا الى العقل الذي هدانا الله تعالى اليه في هذه الآية وامثالها رجي لنا ان نحيي ديننا فيكون دين العقل هو مرجع الامم اجمعين ، وهذا ما وعدنا الله تعالى به (٣٨ : ٨٨ ولتعلمن نبأه بعد حين) (٢) " .

ولقد دعا محمد عبده الى حق الاجتهاد في تفسير الشرع وورث هذا الاتجاه كما بينا

---

١) رسالة التوحيد ص ٩

٢) تفسير القرآن الحكيم ج ٢ ص ٤٤٨

في فصل سابق عن استاذه جمال الدين الافغاني وعن علماء آخرين تالوا بحق الاجتهاد كابن تيمية (المتوفى سنة ١٣٢٨ م) وابن القيم الجوزية (المتوفى سنة ١٣٥٥م) .

لذلك كله اشتدت الدوائر المحافظة في الطعن عليه واكثر من اتبعه وتقبل آراءهم من الطبقة المتأثرة بالحضارة الغربية وكان العدد الأكبر من تلامذته من أصحاب المناصب العاليه في القضاء او التعليم او المصالح الحكومية الاخرى (١) .

٢ - فهم الدين من ينابيعه الأولى :

اخذ الشيخ محمد عبده ، لمحاربة البدع المتفشية في المسلمين ، بدعوة ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ومحمد عبد الوهاب وقال بضرورة الرجوع بالاسلام الى بساطته الاولى ونقاوته الاصليه .

(رأى الشيخ عبده ان الاستغاثة بأهل القبور من الاولياء والصالحين ضرب من الشرك وعد ذلك عبادة لغير الله واستبان في ذلك خطرا على التوحيد) . وصرح ببطلان مفهوم التوسل الشائع بين الناس . ارسل اليه احدهم اهل العلم يستفتيه في التوسل بغير الله اليه فكان جوابه ان ابتغاء الملك ونزعه والباس العزة او المذلة وسوق النفع والضر كل ذلك بيد الله وحده وليس لاحد من خلقه فعل ولا تصريف (٢) .

وفي فتواه المذكورة يقول : " وقد ارشدنا (الله) الى وجوب القصد اليه وحده بأصرح عبارة في قوله (واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداعي اذا دعان) ... فان التوسل انما هو طلب القرب منه وقد اخبرنا الله انه قريب وخبره صدق (٣) " .

ولم يفرق الشيخ عبده هنا بين قرب الانسان من الله وبين قرب الله من الانسان فخلط بينهما والحق ان الآية تصرح بأن الله قريب من كل مخلوق ولكن على المخلوق ان يتقرب هو من ربه بالوسائل التي ذكرتها الآية نفسها في تكملتها :

---

١) رضا ج ١ ص ٧٥٧
٢) تفسير الفاتحة ص ١٥٠
٣) تفسير الفاتحة ص ١٤٥

" فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون " (١)

وفي ذلك اشارة الى تسلسل تلك الوسائل فأولها العمل وفق ما جاء في الكتاب من الوصايا الالهية الكثيرة وثانيها ما ينجم عن هذه الاستجابة من ثقة بالله وايمان به ثم بعد ذلك تتمكن النفس بفضل ما حصلت عليه من يقين في ذات الله ان ترشد اليه في دعائها وتقرب منه وتشهد قربه منها .

ويمضي الشيخ عبده في تأكيده على ان التوسل الى الله بالانبياء والاولياء بدعة في الدين . وان كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار كما نص احد الاحاديث النبوية . ويختص الشيخ عبده ما يسميه "بدعة التوسل" بنعته لها انها اسوأ البدع لما فيها من شبهة الاشراك بالله (٢) . وعلى هذا فالوساطة بين الانسان وربه محال لأن السورة التي يقرأها المسلمون كل يوم في صلواتهم تنص على ان الاستعانة هي بالله وحده (٣) (وإياك نستعين) (٤) .

وهكذا يعود الشيخ محمد عبده مرة ثانية الى المزج بين مفهوم الوسيلة ومفهوم الاستعانة وسنناقش هذه الافكار في الفصل الاخير (٥) .

وقد كان حسنا من الشيخ عبده ان يدعو الى ابطال تلك الانواع الشائعة من التوسل المحرف عن اصله لانه شرك بلا شك ولكن تعميمه النقد والتبديع للمفهوم من اصله هو الذي اوقعه في مخالفة القرآن والسنة كما سنرى .

ويعزو محمد عبده ذلك النمط من تعظيم الاولياء الى حد العبادة الى سياسة الاقوام الذين استولوا على المسلمين منذ حكم المعتصم العباسي حتى العصور المتأخرة من ترك وديلم ومن تولى بعدهم (٦) وفي كلامه عليهم يقول : " نظروا الى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية ، وفي عادات من كان حولهم من الامم النصرانية ، فاستعاروا من

---

١) القرآن الكريم سورة ٢ آية ١٨٦
٢) تفسير الفاتحة ص ١٤٦
٣) تفسير الفاتحة ص ١٥٠
٤) القرآن الكريم سورة ١ الآية ٥
٥) راجع ص ٩١
٦) الاسلام والنصرانية ص ١٤٦ — ١٤٧

ذلك للاســـــلام ما هو براء منه ، لكنهم نجحوا في اقناع العامة بان في ذلك تعظيم شـــعائره ، وتفخيم اوامره ، والغوث عون الغاشم وهم يد الظالم . فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات وسنوا لنا من عبادة الاولياء والعلماء والمتشـــبهين بهم ما فرق الجماعـة ، وارخص الناس في الضلالـة ، وقرروا ان المتاخر ليس له ان يقول بغير ما يقول المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة ، حتى يقف الفكر ، وتجمد العقول (١) » .

واما مفهوم الشـــفاعة وقد تردد كثيرا في القرآن والســـنة ودارت حوله اشـارات مختلفة منها ما يؤكـد بطلانـه ومنها ما يدعم صحتـه وشـــرعيتـه وهو مفهوم له تماس بعبدأ التوســـل المذكور انفـا فقد تردد فيـه الشـيخ عبده ولم يصـل الى قول فصل وذلك لانـه حصره في المعنى الدارج عند العوام ولم ينتبـه الى مغزاه اللغوي ولا الى سره الديني فهو اذ يتكلم عليـه يقـــول :

« ... فليس في القرآن نص قطعي في وقوع الشـــفاعة ولكن ورد الحديث باثباتها فما معناهـا (٢) »

وهنا لم ينتبه ثانية الى ان ما يثبتـه الحديث يجب ان يكون في القرآن مثبتـا . ثم يســـتطرد متابعا قولـه : « الشـــفاعة المعروفة عند الناس هي ان يحمل الشافع المشـــفوع عنده على فعل او ترك كان اراد غيره — حكم بـه ام لا — فلا تتحقق الشفاعة الا بترك الارادة وفســـخها لاجل الشـــفيع .

« فاما الحاكم العادل فانه لا يقبل الشـــفاعة الا اذا تغير علمه بما كان اراده او حكم بـه كان كان اخطأ ثم عرف الصـواب ورأى المصلحة او العدل في خلاف ما كان يريده او حكم بـه . واما الحاكم المســـتبد الظالم فانه يقبـل شـــفاعة المقربين عنده في الشـيء وهو عالم بانه ظلم وان العدل في خلافـه ، ولكنه يفضـل مصلحة ارتباطـه بالشافع المقرب منه على العدالة . وكل من النوعين محال على الله تعالى لانه ارادتـه تعالى على

---

١) الاســـلام والنصرانية ص ١٤٨ — ١٤٩

٢) تفسير القرآن الحكيم ج ١ ص ٣٠٧

حسب علمه وعلمه ازلي لا يتغير "(١) .

وأخيرا يصرح بأن ما ورد في اثبات الشفاعة يكون من المتشابهات وانها مزية يختص الله بها من يشاء يوم القيامة ولا نحيط بحقيقتها مع تنزيه الله عن المعروف من معناها في لسان التخاطب العرفي(٢) .

ويظهر ان الناس ممن يناوئون الشيخ عبده تسامعوا بما قال في تفسيره المذكور فأخذوا يثيرون حوله الشبهات وينسبون اليه نكران ما اجمعت عليه اصول الاسلام ولكن احد الشيوخ الذين كانوا يحضرون حلقاته ناهض هذه الشبهات ورد على مثيرها بقوله :

" اني حضرت مجلس الشفاعة الذى استعير بقوريه نحو الساعتين على ما كان به من قوة البيان وجودة التعبير وفضيلة التأثير وقد قال في نهايته : (ومجمل القول ان الشفاعة ثابتة لا يسع مؤمن انكارها بعد الكتاب والسنة والاجماع ولكنا لا نقبلها بالشفاعة اللغوية المعروفة بين الناس ... لانها بهذا المعنى محالة على الله تعالى كما تقرر في علم الكلام ان ارادته على وفق علمه وانه اذا اراد معاقبة زيد فقد علم ازلا عقابه فلو توسط شفيع بعد ذلك وارجعه عما علمه وأراده على قياس ما تقدم في الشفاعة المعروفة بين الناس لانقلب العلم الازلي جهلا والقول بذلك كفر بالاجماع فلتكن الشفاعة الثابتة لا بهذا المعنى بل على معنى ان الله يعلم ويريد انه لا يعاقب فلانا المجرم بل يعفو عنه بمحض فضله وكرمه ولكن اظهارا لفضل الشفيع في يوم القيامة يوقف ظهور العفو عنه على صورة الشفاعة التي تحصل من الشفيع في ذلك اليوم(٣)" .

ويتراءى لي في الحل الاخير الذى قدمه محمد عبده هنا لمشكلة الشفاعة شيء من وهن المحاكمة وسأبحث ذلك بتفصيل(٤) .

ومهما يكن من امر ذلك الليس ان في مبدأ التوسل او في قضية الشفاعة فان للشيخ محمد عبده فضلا في محاربة العقائد الزائفة المحرفة الملتصقة بهما والذائعة بين جماهير

---

١) تفسير القرآن الحكيم ج ١ ص ٣٠٧
٢) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها وص ٣٠٨
٣) رضا ج ٣ ص ٢٠٦ — ٢٠٧
٤) انظر ص ٨٨ وما بعدها

المسلمين لأنها كانت ولم تزل حافزا على اهمالهم للعمل واغفالهم للمسعى الرشيد متكلين على شفاعة الشافعين وعلى جاه العلماء والأولياء وكل ذلك في الحقيقة لا ينفع ما لم يؤد الى اصطناع الخير واجتناب الشر . ويعد الشيخ عبده في هذا العصر مصلحا ولكن بتطرف وبشكل ناقص فانه انطبق عليه القول "حفظت شيئا وغابت عنك اشياء" .

وصرح الشيخ محمد عبده في غير موضع بضرورة الاخذ بالقرآن والسنة على انهما ينابيع الاسلام الاولى ومصادره العليا ولا يصح في نظره مطلقا ان يستقى الدين من كتب المتأخرين من الفقهاء . وهو يرى في القرآن خير مرشد للعقل والقلب بما يتلو عليهما من آيات تستنهض الفكر وتستحثه على الحركة والتأمل وتلقي في الوجدان آثار الهيبة الالهية فيخشع وينيب الى الحق ويقرر اخيرا ان القرآن يطالب المسلمين جميعا بتدبره وفهم ما اودع الله فيه وما قرر من شرعه(١) .

وفي احدى لوائح الاصلاح التي كتبها في بيروت ووقع عليها مع بعض وجهاء المسلمين وأرسلها الى شيخ الاسلام بالاستانة لتكون نصيحة في انهاض التعليم الديني ، اتى على العيوب السائدة في المسلمين وانتهى بأن ارجع اسبابها جميعا الى قصور في التعليم الديني وفساد لذلك في العقائد وقال معقبا على ذلك:

" ولا منشأ له الا عدم تعليمهم عقائد دينهم ، وغفلتهم عما اودع في كتاب الله وسنة رسوله "(٢) .

وجاء في مقال آخر له : " فالقرآن سر نجاح المسلمين ، ولا حيلة في تلافي امرهم الا ارجاعهم اليه وما لم تقرع صيحته اعماق قلوبهم وتزلزل هزته رواسي طباعهم ، فالأمل مقطوع من هبوبهم من نومهم "(٣) .

---

١) رسالة التوحيد ص ١٨٥ - ١٨٧
٢) رضا ج ٢ ص ٥٠٩
٣) رضا ج ٢ ص ٥١٥

ويؤكد الشيخ عبده ان الانسان لكي يعد مصدقا برسالة محمد لا بد له من تعلم ما في الكتاب وقليل من السنة في العطل (١) .

يقول عند كلامه على مستقبل الاسلام : ((هو دين الفطرة ودين المستقبل ، وأن امم الحضارة في الغرب سيذوقون من فتن مدنيتهم ومفاسدها السياسية ما يضطرهم الى طلب المخرج منها فلا يجدونه الا في الاسلام — اسلام القرآن والسنة لا اسلام المتكلمين والفقهاء (٢))) .

ويحسن بي في هذا المكان ان ابين رأيه في المذاهب وائمتها لاتصال ذلك بما نحن في صدده . يرى محمد عبده ان المذاهب هي طرق الاستدلال التي سار عليها اولئك العلماء المستقلون في فهم الكتاب والسنة وقواعدها واستنباط الاحكام من النصوص . وكان يجل جميع الائمة المجتهدين ويدعو طلاب العلم الى اتباعهم في اعتصامهم بالكتاب والسنة اعتقادا وتخلقا وعملا واستدلالا (٣) .

والشيخ عبده بحكم حبه للاستقلال في الرأي كان يدفع الناشئة الى ذلك دفعا ويحضهم على الفكر وله في ذلك اقوال خلابة تشعل نيران الاستقلال فيمن هو من اهله والمستعدين لنيل سلطانه . اشهرها ما يلي :

" انما ينتفع بالميزان الذي هو علم الفكر من كان له فكر والفكر انما يكون فكرا له وجود صحيح اذا كان مطلقا مستقلا يجري في مجراه الذي وضعه الله تعالى عليه الى ان يصل الى غايته ، واما الفكر المقيد بالعادات المستعبد بالتقليد ، فهو العزول الذي لا شأن له ، وكأنه لا وجود له " (٤) .

ومنها " لا ينبغي للانسان ان يذل فكره لشيء سوى الحق ، والذليل للحق عزيز " (٥) . ويقرن محمد عبده الرجوع عن الحق الوكتمانه بتقليد الناس دون معرفة الحق حق المعرفة " (٦) .

---

١) رسالة التوحيد ص ٢٣٣
٢) رضا ج ١ ص ٩٣٩
٣) رضا ج ١ ص ٩٤٠
٤) المصدر نفسه ص ٧٦٢
٥) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها
٦) المصدر نفسه ص ٧٦٣

" ان فكر الانسان لا يستعبده الا الخوف من لوم الناس واحتقارهم له اذا هو خالفهم ، او الخوف من الضلال اذا هو بحث بنفسه ، واذا كان لا بصيرة له ولا فهم فما يدريه لعل الذى هو فيه عين الضلال . اذن ! ان الخوف من الضلال هو عين الضلال ! "(١) .

كل هذا يقدمه الشيخ عبده بين يدى الطالب ليزجره عن الاتباع الاعمى وليس اتباع المذاهب عنده الا الاقتداء بأربابها الذين طلبوا الادلة في الدين واما جعل كلام الامام المجتهد دينا يتعبد به فهو خلاف لدين الاسلام نفسه (٢) .

وكان يرى امور الدين قسمين : احكام قطعية درجت في القرآن والسنة واحكام غير ثابتة بنص قطعي ولا اجماع فهي محل الاجتهاد (٣) . ولا بد من معرفة رأيه في الفقه والفقهاء لنقف على كامل نظرته الى الاسلام من حيث ضرورة الرجوع الى المصادر الاولى وهنا نراه قد اشترك في محاورة طويلة بينه وبين تلميذه رشيد رضا قال فيها :

" ان المسلمين ضيعوا دينهم واشتغلوا بالالفاظ وخدمتها ، وتركوا كل ما فيه من المحاسن والفضائل ... ومن العجيب ان فقهاء المذاهب الاربعة قالوا ان الصلاة بلا حضور ولا خشوع يحصل بها اداء الفرض ويسقط الطلب (٤) .

ويستغرب الشيخ عبده ان تكون صلوات الناس الساهية الخالية عن المعاني والاهلة بحركات تشبه حركات القرود لها اى قبول عند الله او انها تسقط فرضا ويدلل على رأيه بآيات القرآن الواردة في الصلاة (٥) .

ثم ينتقد تحديد الفقهاء للنيات تحديدا حرفيا مضحكا ويقرر ان النية المقصودة في الشرع هي تحرير الاخلاص والصدق في العمل لا ذكره شفويا وقصده كلاميا (٦) .

ويقول : " ولكن هؤلاء الفقهاء حرفوا كل نصوص الكتاب والسنة ، ان اليهود لم تحرف التوراة اكثر مما حرفوا "(٧) .

---

١) رضا ج ١ ص ٧٦٣
٢) المصدر نفسه ص ٩٤٠
٣) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها
٤) المصدر نفسه صفحة ٩٤١
٥) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها
٦) المصدر نفسه ص ٩٤٢
٧) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها .

ويقدر محمد عبده ان صلاة المستر براون الانكليزي هي خير عنده من صلوات هؤلاء الذين لا يعقلون . لانها ذات روح وصلاتهم حركات القرود (١) .

ويقذف الشيخ عبده اولئك الفقهاء الذين جعلوا كتبهم اساس الدين بلاذع النقد فيقول : " ولم يخجلوا من قولهم : ان العمل يجب بما فيها وان عارض الكتاب والسنة " (٢) .

واكد اخيرا ان حالة الفقهاء هي التي ضيعت الدين (٣) . ويستغرب حالهم كيف لا يجيزون الوضوء بماء الزهر والورد وهو لا يزيد ، في رأيه ، عن الماء الا بطيب الرائحة وهي من مطالب الشريعة (٤) . ويصرح بأن ماء الكولونيا احسن ماء للوضوء لمنعه آثار العرق (٥) . ويطرق اخيرا المعضلة الكبرى فيقول : " ثم ان الناس تحدث لهم باختلاف الزمان امور ووقائع لم ينص عليها في هذه الكتب فهل نوقف سير العالم لأجل كتبهم " (٦) .

التوفيق بين الدين والعلم

رأينا فيما سبق ان الشيخ عبده يحد الدين من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتحفظ عليه قواه التي قد تصرف في السير على غير هدى وتهدر في الخبط والخلط سدى (٧) .

ولقد هب يدعو الى الانكباب على تحصيل العلوم دعوة حارة مؤيدا صلة الصداقة بين الدين والعلم كلما سنحت له الفرصة وواتته المناسبات فهو اذ يبحث في ماضي المسلمين وتاريخ العلوم عند العرب ينتزع منه الأمثال الدالة على عقيدته هذه ويستغل ما اظهره الخلفاء والامراء من تشجيع للعلماء وتسامحهم ازاءهم في ما يتعلق بمختلف مذاهبهم ونحلهم (٨) .

---

١) رضا ج ١ ص ٩٤٢ . يشير محمد عبده الى اسلام المستر براون وقراءته للقرآن كصلاة يؤديها ويقول انه تعلم منه الصلاة بعد ئذ بصورة عملية .

٢) المصدر نفسه ص ٩٤٢ — ٤٣

٣) المصدر نفسه ص ٩٤٣

٤) المصدر نفسه ص ٩٤٤

٥) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها

٦) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها

٧) المصدر نفسه ص ١١

٨) الاسلام والنصرانية ص ١٢٦ ، ص ١٣١ ، ص ١٩ — ٢٨

ويقف هنا من المسلمين الجامدين الخامدين في زمنه موقف اللاهج بالملام حين يرى تصليبهم في تحريم علوم النظر والاستدلال (١) . يقول في هذا الصدد في احدى مقالاته التي نشرها في جريدة الاهرام وهو لما يزل طالبا مجاورا في الازهر وفي ظل تربية استاذه جمال الدين : " وليست شعوبي اذا كان هذا حالنا بالنسبة الى علوم قد ارضعت ثدى الاسلام وغذيت بلبانه ... من زمن يزيد عن الف سنة ، ... فما حالنا بالنسبة الى علوم جديدة مفيدة ، هي من لوازم حياتنا في هذه الازمان ، وكافة عنا ايدى العدوان والهوان (٢) " .

ثم يمضي في نقده لعلماء زمانه الذين ترعرع بينهم في الازهر واكتشف حالهم وآراءهم وسيرهم وتعليمهم ووقف على امتناعهم عن تلقف العلوم الحديثة وحجرهم على عقول الناشئة دونها فيقول :

" ولم يروا لهذه العلوم فائدة ، تعود عليهم او على ابناء ملتهم بعائدة ، ولكن اشتغلوا بما ربما كان اليوم بزمان قد افلت كواكبه ، وطويت صحفه وولت ركائبه ، غير ملتفتين الى اننا اصبحنا في خلق جديد ، قد طرحتنا الايام بدينا وشرفنا في بادية ، قد غصت باساد ضارية ... فان كنا من آحاد تلك الاساد فقد وقينا انفسنا ودينا ، والا فاما ان نطرح ديننا وننجو بانفسنا ، واما ان نبيد عن آخرنا ، بسوء الجهل وضلال الطريق (٣) " .

ولا ينتهي نفسه عند هذا الحد من دعم دعوته بل يولي وجوه الناس الذين يخاطبهم شطر اوربا ليعتبروا بما صارت اليه نتيجة محتومة لما حصلته من العلم فيقول :

" فعلينا ان ننظر الى احوال جيراننا من الطل والدول ، وما الذى نقلهم عن حالهم الاول ، وادى بهم الى ان صاروا اغنياء اقوياء ، حتى كادوا ان يتسلطوا علينا باموالهم ورجالهم ان لم نقل قد تسلطوا بالفعل . فاذا حققنا السبب وجب علينا ان

---

١) رضا ج ٢ ص ٣٩ـ ٤٠
٢) المصدر نفسه ص ٤٠
٣) المصدر نفسه ص ٤٣

نسارع اليه حتى نتدارك ما فات ، ونستعد لخيرنا فيما هو آت . وها نحن بعد النظر لا نجد سببا لترقيهم في الثروة والقوة الا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم حتى قادتهم الى رشادهم ، فتنوروا خيراتهم فاكتسبوها ، ومضراتهم فنكبوا عنها وتركوها ، فاذا اول واجب علينا هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في اوطاننا "(١) .

ويعزز منطقه بايراد حجج يدلل بها على ان لا قيامة للدين الا اذا طرقت تلك العلوم وجنيت ثمارها/ يقول: " ليس من البين انه لا دين الا بدولة ، ولا دولة الا بصولة ، ولا صولة الا بقوة ، ولا قوة الا بثروة . وليس للدولة تجارة وصناعة ، وانما ثروتها بثروة اهاليها ، ولا تمكن ثروة الاهالي الا بنشر العلوم فيما بينهم حتى يتبينوا طرق الاكتساب "(٢) .

ويتبين لنا من قول الشيخ عبده هذا انه يريد التوسل بهذه العلوم الحديثة الى نهضة اقتصادية لامته . وكذلك هو يتوسل بها الى الذود عن الوطن والذب عن بيضة الاسلام . يقول :

" كيف لا وقد ولت ازمنة كان التحارب فيها بالاخشاب والنبال ، والسهام وخزف الجبال ، وما اشبه ذلك مما كان يمكن استحصاله بزهيد القيم . وحضرنا زمان نضطر فيه الى العراكب المدرعة ومدافع الكروبز والكروب وبنادق الابرة ، وغير ذلك من الاسلحة التي تجددت وستتجدد فيما بعد ... وكيف نتمكن من حفظ ملتنا ودولتنا ودياننا من شرور هذه النيران بدون ان يكون عندنا ما يماثلها ان لم نقل ما يزيد عنها "(٣) .

فلا بد اذا من اتيان البيوت من ابوابها ولا بد من تحصيل هذه العلوم .

واذا كان العلم قد غادر الشرق بعدما نبت فيه الى ديار اخرى فان امل الشيخ عبده الراسخ في عودته الى وطنه يوم ينبثق نور الدين من جديد لان العلم لا بد " يتبعه وهو خليله الذي لا يأنس الا اليه ، ولا يعتمد الا عليه "(٤) .

---

١) رضا ج ٢ ص ٤٣
٢) رضا ج ٢ ص ٤٣
٣) رضا ج ٢ ص ٤٣ — ٤٤
٤) الاسلام والنصرانية ص ١٧٦

ويؤكد اصطحاب الدين والعلم بالرجوع الى مصادر الاسلام وعند تفسيره للآيه ١٥٩ سورة ٢ ، يعرض بأولئك الذين يتجافون عن العلم باسم الدين ، ثم يؤكد ان دراسة مظاهر الكون تفضي الى معرفة بالله اكثر مما يفضي اليه الجدل اوعلم الكلام . يقول :

" اليس اكبر خذلان للدين وجناية عليه ان لا ينظر المنتسبون اليه في آياته التي يوجههم الى النظر اليها ... اليس من اشد المصائب على الملة ان يهجر رؤساء دين كهذا الدين العلوم التي تشرح حكم الله وآياته في خلقه ويعدوها مضعفة للدين او ماحية له خلافا لكتاب الله الذى يستدل بها ويعظم شأن النظر فيها "(١) .

ويفسر الشيخ عبده كلمات الله في الآية : " ولو ان ما في الأرض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله " انها آحاد المخلوقات والمبدعات الالهية وهي لذلك تنطق بلسان افصح من لسان المقال غير ان لا يفهمها الذين هم عن السمع معزولون ، وللعلم معادون . فهؤلاء وهموا ان معرفة الله انما تكون بالمجادلة النظرية ، والاقيسة المنطقية ، دون الدلائل الوجودية وينتهي بخلاصة يقرر فيه : " ان لله كتابين كتابا مخلوقا وهو الكون وكتابا منزلا وهو القرآن وانما يرشدنا هذا الى طريق العلم بذاك بما اوتينا من العقل فمن اطاع فهو من الفائزين . ومن اعرض فاولئك هم الخاسرون "(٢) .

[ويشير الشيخ عبده الى ان التفكر والبحث في ظواهر الطبيعه والانسان يؤديان فائدة مزدوجة اذ هما يهديان الى علوم الحياة من جهة ويعرفان الانسان بالله الذى لولاه لما صدرت هذه الاكوان بما هي عليه من النظام]"(٣) من جهة اخرى .

يقول : " ولا يجوز ان يقام الدين حاجزا بين الارواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الامكان . بل يجب ان يكون الدين باعثا لها على طلب

---

١) تفسير القرآن الحكيم ج ٢ ص ٦٧
٢) المصدر نفسه ص ٦٨
٣) رسالة التوحيد ص ٦١

العرفان ، مطالبا لها باحترام البرهان ، فارضا عليها ان تبذل ما تستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديها من العوالم ... ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين ، وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب العالمين "(١) .

وعلى هذا فالمدنية في نظر الشيخ ليست مما يردها الاسلام ولا هو يقف عثرة في سبيلها ابدا غير انه يرى ان في المدنية بعض اللمم والاسلام قادر على تنقيتها من شوائبه وهنالك تكون من اقوى انصاره وذلك متى عرفته وعرفها اهله "(٢) . وبذلك بدا موقف محمد عبده الاعتذاري وظهرت ناحية التجديد في دعوته الاصلاحية . ولقد ذكرت الموسوعة الاسلامية موقفه هذا "(٣) ، كما ان الاستاذ جب اشار الى هذا التجديد عندما تكلم عن ادخاله للعلوم العصرية في برنامجه "(٤) ، مقتنعا انها في العرف الاخير لن تضر العقيدة ولكن تأتي باعزازها وتأييدها .

ولقد اثر هذا الاتجاه في افكاره فتراه اذ يمر على آيات الكتاب يفسرها كثيرا ما ظهرت له تلك الآيات في جلابيب هذه المعاني التي ذاعت في الثقافة الغربية ونعرض هنا الى بعض مواقفه في هذا الصدد .

ففي السورة ٢ الآيتان : ١٨ و ١٩ هما " او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم ان الله على كل شيء قدير "

ورغم ان معرض هذه الحادثات الطبيعية هنا لا يزيد عن كونه تشبيها لاحوال المعرضين عن الحق اثناء تلاوة آيات القرآن عليهم فان الشيخ عبده ينتهز هذه الفرصة ليعلق عليها بان ورود الظواهر الطبيعية في القرآن ان هو الا لاجل الاستدلال واستلفات

---

١) رسالة التوحيد ص ١٤١ - ١٤٢
٢) الاسلام والنصرانية ص ١٧٦
٣) الموسوعة الاسلامية مقال "محمد عبده"
٤) جب ، الاسلام ص ١٧٦

العقل الى البحث الذى يقوى به الفهم والدين ويقرر رأيه بالمناسبة في ما يتعلق بالتلغراف والتلفون والتراموای والانارة الكهربائية [1] .

اما في ما يتعلق بالجن في الآية ٢٧٦ سورة ٢ " الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس " فان الشيخ عبده يذهب الى قول المتكلمين من ان الجن اجسام حية خفية لا ترى ليتأوله كما يريد فيقول : " وقد قلنا في المنار غير مرة انه يصح ان يقال ، ان الاجسام الحية الخفية التي عرفت في هذا العصر ، بواسطة النظارات المكبرة ، وتسمى بالميكروبات ، يصح ان تكون نوعا من الجن ، وقد ثبت انها علل لاكثر الامراض " [2] .

ولكن لا ادرى هنا ما هي العلاقة بين اكل الربا وبين الميكروبات وان الميكروبات ان اكلت القوى الجسمية فما شأنها مع القوى النفسية لا سيما في الآية لا تذكر مس الجن ولكن مس الشيطان . والشيطان لغة ودينا هو البعيد عن الحق من مادة شطن = ابتعد . وعلى كل حال فان كلام الشيخ عبده ينم عن حيطة كعادته حين لا يطمئن الأدلة القاطعة وحين يريد تلافي الصدام بين العلم والايمان ، اذ ان كلا الأمرين لهما منزلة في قلبه .

ويختم كلامه في هذا الموضوع بقوله : " على اننا نحن المسلمين ، لسنا في حاجة الى النزاع فيما اثبته العلم . وقرره الاطباء ، او اضافة شيء اليه مما لا دليل في العلم عليه ، لاجل تصحيح بعض الروايات الآحادية . فنحمد الله تعالى ان القرآن ارفع من ان يعارضه العلم " [3] .

ويذهب الشيخ عبده مذهبا شبيها بهذا حين يعرض في تفسير جزء عم للسورة ١٠٥ الآية ٣ و ٤ " وأرسل عليهم طيرا ابابيل . ترميهم بحجارة من سجيل " . فيلجأ الى رواية عكرمة ورواية يعقوب بن عتبة من ان داء الجدرى والحصبة فشا في جند الحبشي

---

١) المنار م ٤ (١٩٠١) ص ٣٣٤ وما بعدها
٢) تفسير القرآن الحكيم ج ٣ ص ٩٦
٣) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها .

فكان لحمهم يتناثر ويتساقط فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين . ويفسر الطير الابابيل بشيء من الحيطة انها من جنس البعوض او الذباب وان الحجارة التي هي من سجيل هي جراثيم علقت بارجل الطير ثم اتصلت بأجساد الجند فدخلت من المسام فاثارت تلك القروح التي انتهي امرها بافساد الاجسام (١) . ولكي يمهد لهذا التفسير النجار يقول : " هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة واما عدا ذلك فهو ما لا يصح قبوله الا بتأويل ان صحت روايته وما تعظم به القدرة ان يؤخذ من استعزاز بالفيل وهو اضخم حيوان من ذوات الاربع جسما ويهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ولا يدرك بالبصر حيث ساقه القدر . لا ريب عند العاقل ان هذا اكبر واعجب وابهر " (٢) .

ولمثلا يتراءى صدام بين العلم والقرآن عند محمد عبده عند تفسيره اول آية من سورة النساء " يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء " الى الاحتياط والدوران ليتخلص من العقيدة السارية لدى المسلمين والقائلة بأن آدم هو ابو البشر وكلهم ابناؤه . كل ذلك تمهيدا لشيخ التخاصم بين العقيدة الدينية وبين العلم الحديث فهو يقول :

" ليس المراد بالنفس الواحدة آدم بالنص ولا بالظاهر " (٣) .

والذى حداه على هذا النفي اعتقاده ان هذا الخطاب موجه الى جميع الامم وليس للمسلمين فقط (يا ايها الناس) ولما كان لكل امة مذهب ومعتقد في الاصل الذى تحدرت منه والاب الذى انفصلت عنه فلا يصح ان نقيد النفس الواحدة في الآية بمعنى واحد هو آدم (٤) .

وهذا منطق غريب بل عجيب فكأن القرآن في رأى محمد عبده يجب ان يجارى الناس على ما يعتقدون بصرف النظر عن الحقيقة في ذاتها لأجل ان يستميلهم الى دعوته

---

١) تفسير القرآن الحكيم جزء عم ص ١٥٧ — ١٥٨
٢) المصدر نفسه ص ١٥٨
٣) المنار م ١٢ (١٩٠٩) ص ٤٨٥ وما بعدها
٤) المصدر نفسه الصفحة ذاتها

ولا يخفى شـــطط هذا النهج في التفكير . ثم يلجأ صاحبنا الى ناحية اخرى ليضعف وجهة النظر التي يحاول ردها فيقـــول :

" وهذا النســـب المشـــهور عن ذرية نوح مثلا ، هو ماخوذ عن العبرانيين فانهم هم الذين جعلوا للبشـــر تاريخا متصلا بآدم ، وحددوا له زمنا قريبا ... والعلم والبحث في آثار البشـــر ما يطعن في تاريخ العبرانيين ، ونحن المسلمين لا نكلف تصديق تاريخ اليهود ، وان عزوه الى موســـى عليه الســـلام ، فانه لا ثقة عندنا بانه من التوراة (١) ، وانه بقي كما جاء به موســـى " .

" وقد ابهم الله تعالى ههنا امر النفس ، التي خلق منها ، وجاء بها نكرة ، فندعها على ابهامها ، فاذا ثبت ما يقوله الباحثون من الافرنج من ان لكل صنف من اصناف البشـــر ابا ، كان ذلك غير راد على كتابنا ، كما يرد على كتابهم التوراة ، لما فيها من النص الصريح على ذلك (٢) " .

هذه البهلوانية الفكرية كلها ، يستعطها الشيخ عبده سباجا للقرآن في رأيه لئلا يرد عليه نقد اورده اوروبا وفات الشيخ عبده ان يذكر عشـــرات الآيات الصريحة في القرآن التي تخاطب الناس اجمعين " يا بني آدم " ولو رجع الى السورة ٣٦ الآية ٦٠ لوجد بداهة نص القرآن على ان الناس اجمعين يخاطبون يوم القيامة من قبل الخالق " يا بني آدم " . ولكن حســـبانه لنظريات الافرنج شـــغله عن ذلك وكان تحقيقه هنا غير مســـتكمل لشـــرائط الاجتهاد التي تفرض اســـتفراغ النظر .

وننتقل الآن الى فكرة الســـنن الكونية لدى الشيخ عبده ونرى في عداد هذا المفهوم فكرتين تحدرتا اليه عن طريق الغرب فاراد ان يدرجهما في تفســـيره للقرآن وهما فكرة " تنازع البقاء (٣) " وفكرة " بقاء الاصلح " .

ولقد راى ان هذين المعنيين ممكن ان يســـتفادا من الآية ٢٥٢ السورة ٢ فاكد هما هناك ولوح بالنقد للمقلدين في الدين والمتطفلين في رأيه على علم الســـنن في الاجتماع البشـــري اذ ينســـبون فكرة التنازع الى الماديين ويقولون انه جور هـــم واضعوه (٤) .

---

١) المنار م ١٢ (١٩٠٩) ص ٤٨٦
٢) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها
٣) تفسير القرآن الحكيم ج ٢ ص ٤٨٧
٤) تفسير القرآن الحكيم ج ٢ ص ٤٨٧

ولو تابعنا الآية التي ادرج الشيخ في تفسيرها هذه المعاني ولاحظنا قرينتها لصعب علينا التسليم باجتهاده وتفسيره والاخذ برأيه فانها تدل على ان دفع الله لعباده المؤمنين الى قتال الخارجين على الدعوة ونصرهم عليهم هو من العوامل التي تحد بغي الباغين وتقطع دابرهم وتطفئ نيران فتنتهم وترد مظالمهم لئلا يفسد الناس جميعا بتمادي طغيانهم وانبساط سلطانهم .

يرى ماكدونالد في كتابه " تطور علم الكلام في الاسلام " ان اهل السنة لا محل عندهم للقانون الطبيعي بمفهوم العلم الحديث اذ هم يقولون ان الارادة الالهية اختصت بالقدرة المطلقة ، وانها العلة الفاعلة لكل ما يجري في الوجود وانها السبب في وجود الكائنات ، وفي استمرارها وبقائها بواسطة الخلق المستمر (١) .

غير ان الشيخ عبده وان كان يرى ذلك ايضا فهو يجد في العبارة الواردة في محلات كثيرة من القرآن بلفظ (سنة الله) ما يشبه معنى القانون الطبيعي .

وقد اصطفى من القرآن آيتين تتعلقان بسنن الله في الامم وطبقهما على المسلمين في مقالة له ، وكان متأثرا بهما في حركة اصلاحه . ومما جاء في مقاله كزبدة للفكرة قوله :

"ارشدنا سبحانه في محكم آياته الى ان الامم ، ما سقطت من عرش عزها ، ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود ، الا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها الله على اساس الحكمة البالغة " (٢) .

---

١) ماكدونالد — تطور علم الكلام في الاسلام ص ٢٠١ وما بعدها ؛ نقلا عن آدم ز ص ١٣٢

٢) رضا ج ٢ ص ٣٢٧

الفصل الثالث

الدعوة الى الاسلام والدفاع عنه

رسائله الاصلاحية في الارشاد :-

يعثر الباحث في مؤلفات الشيخ عبده على رسائل عدة تقع في نطاق وثنائيين صفحة (١) اهمها ما اصدره من باريس الى علماء جمعية العروة الوثقى في البلدان الاسلامية .

ولم اتمكن من الوقوف على اسماء هؤلاء العلماء ولا اماكن سكناهم لأن ناشرها رشيد رضا قد تكرّم الامر بذكره حرفيين من اسمائهم فحسب . وعلى كل حال يتضح من مضمون هذه الرسائل ان الشيخ عبده كان يحمل على نفوس هؤلاء المراسلين بحرارة الاندفاع الى الارشاد الديني والاستكثار من الاخوان (٢) ، والعمل على تأسيس العقيدة في القلوب والاستعداد للجهاد . ومن عباراته الحافزة قوله :

" فان فناء في الحق لهو عين البقاء وان نعيما في الباطل لهو الشقاء " (٣) .

ومن وصاياه المتردد كثيرا دفعه اولئك الاعضاء الى تلاوة القرآن وتدبر معانيه دون الالتفات الى تفاسيره ثم العمل به والتأدب بآدابه (٤) . وكان يحثهم على الزهادة في متاع الحياة الدنيا ويؤكد لهم ان نصيب المرء من الحياة ما اعده لنصرة الحق ونشره . وتلوح في اسطره كثيرا فكرة انتصار الاسلام وقيام العصابة الالهية (٥) ودنو ميعادها . ولا يفوته ان يراسل احد شيوخ التصوف ويجاري ميوله في تسطير كلمات هي من خاصة الصوفية ليتعرف اليه ويعقد معه الصداقة والاخوة يقول :.

---

١) رضا ج ٢ ص ٥٥٣ - ٦٤١
٢) المصدر نفسه ص ٥٥٦
٣) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها
٤) المصدر نفسه ص ٥٦٨ - ٥٦٩
٥) المصدر نفسه ص ٥٧٧

" فانما الاخوة مظهر سرّ المحبة ، والمحبة تجلي سرّ الجذب الالهي الذي يجمع الله به ارواح الصديقين الى حضرته القدسية "(١) .

ويكمل لكل بمكياله ويخطابه على قدر عقله والخطة الواضحة من وراء كل ذلك عقد العروة الوثقى بين هو"لاء على اساس ديني وهدف سياسي يجمع الكل على الجهاد في سبيل رفع الاسلام واعزاز المسلمين . والحقيقة ان الشيخ عبده كان قوى الامل في الاصلاح ولما كتب اليه تلميذه رشيد رضا كتابا ضمنه الشكوى من قلة اقبال الناس على المنار اجابه من المنصورة بكلمته :

" الناس في عماية عن النافع ، وفي انكباب على الضار ، فلا تعجب اذا لم يسرعوا بالاشتراك في المنار ، فان الرغبة في المنار تقوى بقوة الميل الى تغيير الحاضر ، بما هو اصلح للآجل واعون على الخلاص من شر الغابر ، ولا يزال ذلك الميل في الاغنياء قليلا ، والفقراء لا يستطيعون الى البذل سبيلا ، ولكن ذلك لا يضعف الامل ، في نجاح العمل "(٢) .

وهذه النظرات كانت صائبة وقد تحققت فيما بعد في مجلة المنار فلم تمض مدة حتى ذاعت شهرتها في العالم الاسلامي وانتشرت افكارها بين المسلمين في كل البلدان(٣) .

كان الشيخ عبده بالمرصاد لكل ما يستطيع به بسط الاسلام ولم يتسامح بحرمان الكنيسة الروسية للفيلسوف تولستوى حتى هرع اليه برسائله يحاول اجتذابه الى الدين الاسلامي . ومما خاطبه به " سطع علينا نور من افكارك ، واشرقت في آفاقنا شموس من آرائك ، ... هداك الله الى معرفة سرّ الفطرة التي فطر الناس عليها ، ووقفك على الغاية التي هدى البشر اليها .

---

١) رضا ج ٢ ص ٥٧٣

٢) المصدر نفسه ص ٦٤١

٣) جب ، في وجهة الاسلام ص ٤٩

فادركت ان الانسان جاء الى هذا الوجود لينبت بالعلم ، ويثمر بالعمل ... ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب التقاليد ، ووصلت بها الى حقيقة التوحيد "[١] .

وفي رسالة اخرى ، امتدحه مدحا طويلا فقال : " ايها الروح الزكي ، صدرت من المقام العلي ، الى العالم الارضي ، وتجسدت فيها سموه تولستوى ، قوى فيك اتصال روحك بمبدئه ، فلم تشغلك حاجات جسدك ، عما تسمو اليه نفسك "[٢] .

وكان محمد عبده يستثمر ثقافته الصوفية في مثل هذه المناسبات ويزج برقائقها في بضاعة الرسائل . ولقد اسعفه في هذا المضمار بيانه وقلمه. وكتبه الى العلماء طافحة بعبارات التمجيد واساليب الثناء فتارة يبدأ الكتاب بـ : " هامة الفضل وجبهة الأدب "[٣] . وطورا بـ : " عزيزي صفوة البلغاء ، ونخبة الأدباء "[٤] . وما الى ذلك من شباك الأدب وحبائله .

التقريب بين الاديان الثلاثة .-

ساهم محمد عبده في العمل لفكرة الجامعة الاسلامية مع استاذه جمال في باريس ، ولما اضطرت جريدة العروة الوثقى التي اصدراها الى انحاء العالم الاسلامي الى الاحتجاب افترقا وعاد الشيخ عبده الى بيروت . وهنا الف جمعية سياسية دينية سرية غرضها محو الشقاق من بين اهل الاديان الثلاثة والعمل على التأليف بينهم رجاء التعاون على ازالة الضغط الأوروبي عن الشرقيين[٥] .

وهدفت الجمعية ايضا الى تعريف الافرنج بحقيقة الاسلام[٦] . واتصل محمد عبده صاحب الرأي الأول في تسييرها بالقس اسحاق طيلر الانكليزي وأرسل اليه يدعوه لقبول الاسلام[٧] . وكان ذلك على اثر القاء القس خطبا في لندن ونشره مقالات

---

١) رضا ج ٢ ص ٦٢٣
٢) المصدر نفسه ص ٦٢٤
٣) المصدر نفسه ص ٦١٥
٤) المصدر نفسه ص ٦١٤
٥) رضا ج ١ ص ٨١٩
٦) المصدر نفسه ص ٨٢٠
٧) رضا ج ٢ ص ٥٨٤-٥٨٥

في جرائدها تتعلق بالاسلام والنصرانية وتظهر انحطاط على اتفاق .

ترجم هذه المقالات ميرزا باقر امين سر الجمعية الى اللغة العربية وصححها محمد عبده ثم نشرت كما يذكر رشيد رضا في جريدة ثمرات الفنون الاسلامية وذلك سنة ١٨٨٨ (١) .

ومن اقوال هذا القس في خطبه : " ان الاسلام من حيث هو دين دعوة وتبليغ قد نجح في قطعة عظيمة من العالم نجاحا يفوق نجاح الديانة المسيحية ... والمساعي المبذولة لتنصير الأمم المسلمة ترجع الى الخيبة رجوعا ظاهرا " (٢) .

ويقول في مكان آخر : " فيجب علينا ان نعلم ان الدين الاسلامي لا يناقض الديانة المسيحية بل يتفق معها ، فانه صدى ايمان ابراهيم . والمسلمون يؤمنون بان اعظم هداة البشر : ابراهيم خليل الله ، وموسى كليم الله ، وعيسى كلمة الله ، ومحمد رسول الله (ص) ولسيدنا عيسى مقام جليل في الاربعة " (٣) .

" الاسلام قريب جدا من المسيحية ، والمسلمون كأنهم مسيحيون ، فتعالوا بنا نساعدهم على الكمال في دينهم ، لا نسعى عبثا لابطاله ، لعلنا نجد في الاسلام مسيحية ونجد محمدا اتخذا بعضد المسيح في دينه " (٤) .

كان طبيعيا ان يبادر الشيخ عبده لاغتنام الفرصة فيرسل هذه الشخصية التي تذيع عن المسلمين هذه الافكار واستهل كتابه اليه بقوله : " كتابي الى الطهم بالحق الناطق بالصدق " (٥) . وقدم اليه من العبارات ما يجتذبه الى القيام بأمر التمهيد لجمع المسيحية والاسلام .

---

١) رضا ج ١ ص ٨٢٢
٢) المصدر نفسه ص ٨٢٢
٣) المصدر نفسه ص ٨٢٣
٤) المصدر نفسه ص ٨٢٤
٥) رضا ج ٢ ص ٥٨٢

ويظهر ان القصر قد بعث كتابا الى محمد عبده يذكر له فيه وجوه الخلاف بين الدينين في ما يتعلق بالطلاق وتعدد الزوجات والرق فأجابه على ذلك بقوله :

« اما اصول الدين الاسلامي فهي الايمان بالله وان محمدا رسول الله وان القرآن كلام الله ... وما تتصوره من الموانع يزول ، ولا اظن يوما مر او يمر على الانكليز يكونون اسعد من ذلك اليوم الذي يؤمنون فيه بدين محمد ، اذ يصبح العالم خادما لهم ، وجند الله الاعظم ناصرا لأهله منهم ، ويتم لهم ما اراد وا من اقرار عين العبيد ، وارضاء قلوب النساء ، وهما مما يدعوا اليهما الدين الاسلامي على اتم الوجوه واكملها . فعلم بنا يا عزيزي الى الاتفاق على الاصول ، ليتيسر لنا الوفاق على الفروع ، والاتحاد في الأب ، ليتسنى لنا الاتحاد في الابن ، فانما تؤتى النتائج من مقدماتها ، ولا تؤتى المقدمات من نتائجها (١) » .

ذكرتني رسالة الشيخ عبده هذه بكلمة قالها اللورد كرومر عنه صور فيها حالة بعض الشيء غير عطي (٢) . والحق يظهر ان الشيخ عبده لم يكن مقدرا بعمق تلك الهوة التي كانت تفصل بين اهل الاديان المختلفة . انه ورث هذا الاتجاه في التوفيق عن استاذه جمال الدين ولكن مصير هذا الاتجاه لديه لم يكن خيرا من مصيره لدى جمال فكلاهما ادرك بعد بذل الجهد صعوبة تنفيذ الفكرة ولما في ساء الحياة ذاك التعصب الاعمى الآخذ بنواصي رجال الدين في اليهودية والمسيحية والاسلام . ولعل الباعث الذي كان يحرك جمالا وتلميذه من بعده ما وجداه في القرآن من وعد الهي حاسم باظهار الاسلام على الدين كله (٣) .

---

١) رضا ج ٢ ص ٥٨٥

٢) مصر الحديثة ج ٢ ص ١٧٩

٣) المخزومي ص ٢١٧

ازالـــة الشـــبه عـــن الاســـــلام ٠ ـ

افاد الشيخ عبده من قوة عقله كثيرا في تحرير الفكر الاسلامي من كثير من الاوهام السارية في كتب التفاسير فكان يعرض للآيات التي اشتبهت على الافهام ويخرج منها بحلول حسنة ٠

من ذلك مسألة الغرانيق ٠ يقول رشيد رضا : " حديث الغرانيق صار مشهورا عند المتأخرين لوجوده في كثير من كتب التفسير التي تتناولها الايدى (حتى الجلالين اخصرها) ولو صح لكان اكبر شبهة على الدين ولكن العقلد البحت الذى لا نظر له لا يبالي بالشبه ويقبل كل نقل ، وان كان الفرع فيه ينفي الاصل "(١) ٠

ولقد بدأ الشيخ عبده بكشف شبهة اخرى عن بعض آيات القرآن تمهيدا لدحض شبهة الغرانيق ٠ وذلك ان عرض للآيات ٥٢ ـ ٥٥ من سورة الحج وهي :

" وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان في امنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ٠ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفي شقاق بعيد ٠ وليعلم الذين اوتوا العلم انه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وان الله لهاد الذين امنوا الى صراط مستقيم ٠ ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تاتيهم الساعة بغتة او يأتيهم عذاب يوم عقيم " ٠

يقول الشيخ عبده معلقا على هذه الآيات : " يعلم كل ناظر في كتابنا الالهي (القرآن) [كذا] ما رفع الاسلام من شان الانبياء والمرسلين ٠ والمنزلة التي احلهم من حيث هم حملة الوحي وقدوة البشر في الفضائل وصالح الاعمال ، وتنزيهه اياهم عما رماهم به اعداؤهم ، وما نسبه اليهم المعتقدون بادیانهم ، ولا يخفى على احد من اهل النظر في هذا الدين القويم انه قد قرر عصمة الرسل كافة من الزلل في التبليغ ، والزيغ عن الوجهة التي وجه الله وجوههم نحوها من قول او عمل ، وخص خاتمهم محمدا صلى الله عليه وسلم فوق ذلك بمزايا فصلت في ثنايا الكتاب العزيز "(٢) ٠

---

١) تفسير سورة الفاتحة ص ١٥٨ ٢) المصدر ذاته ص ١٦٢/٢/٢

ثم يقـــول : " عصمة الرســل في التبليغ عن الله اصل من اصول الاســـــلام شهد به الكتاب وايدتــه السـنه واجمعت عليــه الامة "[1] .

ويقذف محمد عبده باللوم والنقد اللاذع عشـــــاق الروايات وعبدة النقل الذين لم يســـتطيعوا فهم قولــه تعالى (وما ارسلنا من قبلك ... الآيه المذكورة) فذهبوا يتلمســـون التفســـير في الروايات المتحدرة اليهم عن السـلف ويطلبون التأويل للآيـة .

يقـــول : " فقيض لهم من يروى في ذلك احاديث تختلف طرقها ، وتتباين الفاظها وتتفق في ان النبي صلى الله عليــه وسـلم عندما بلغ منه اذى المشـركين ما بلغ واعرضـوا عنه وجفاه قومــه وعشـيرته لعيبه اصنامهم ، وزرايتــه على آلهتهم ، اخذه الضجر من اعراضهم ، ولحرصــه على اســلامهم وتهالكــه عليــه تمنى ان لا ينزل عليــه ما ينفرهم ، لعله يتخذ ذلك طريقـا الى اســتمالتهم واســـتنزالهم عن غيهم وعنادهـم ، فاســتمر به ما تمناه حتى نزلت عليه ســورة (والنجم اذا هوى) وهو في نادى قومه ، وروى انه كان في الصلاة وذلك التمنى اخذ بنفســه ، فطفق يقرأهـا فلما بلغ قولــه (ومناة الثالثة الاخرى) القى الشـيطان في امنيتــه التي تمناهـا بان وسوس له بما شـيعها به فسـبق لسـانه على ســبيل الســهو والغلط فمدح تلك الاصنام وذكر ان شـفاعتهن ترجى ، ... ففرح المشـركون بذلك وعندما ســجد في آخر السـورة ســجدوا معه جميعا "[2] .

وبعد مناقشـــته لهذه الروايات وتمحيصها وتضعيفها يرجع فيفســر الآيات معتمدا على مضمونها اللغوى . ويقـرر ان الله ما ارســل من رســول ولا نبي ليدعو قومه الى هدى جديد او شــرع ســابق الا وله امنية في قومه وهي [illegible] شقاوتهم بدوائه ونجاتهم بارشـاده وما من رســول الا وهو احرص على ايمان امته وسعادتها منه على الطعام والشـــراب[3] . ويدعم الشيخ عبده تفســيره هذا بأمثلة من القرآن تؤيـد حرص النبي وأســفه على الناس ان لا يكونوا مؤمنين . منها : " فلعلك باخع نفســك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اســفا " و " وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين " . ثم يتابع التأويــل فيقـول : " وما من رســول ولا نبي الا اذا تمنى

---

١) تفســير ســورة الفاتحه ص ١٦٢

٢) المصدر نفسه ص ١٦٣ ـ ١٦٤ حيث يذكر محمد عبده اشكالا اخرى للرواية . منها انها " تلك الغرانيق العلى ، وان شفاعتهن لترتجى " الخ .

٣) المصدر نفسه ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .

هذه الأمنية السامية القى الشيطان في سبيله العثرات ، واقام بينه وبين مقصده العقبات ، ووسوس في صدور الناس ، ... فثاروا في وجهه ، وصدوه عن قصده "(١) .

ثم يقول : " ولكن الله غالب على امره ، فيمحق ما القاه الشيطان من هذه الشبهات ، ويرفع هذه الموانع وتلك العقبات ، ويهب السلطان لآياته فيحكمها ، وينبت دعائمها ... وتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الشيطان هي السفلى "(٢) .

ويرى محمد عبده ان الحكمة من تنزيل هذه الآيات حكايتها للسنة الآلهية التي اقام الله عليها الانبياء والمرسلين تسلية لمحمد عما كان يلقاه من قومه ووعد له باكمال دينه وهداية امته(٣) .

اما ما يتعلق بقصة الغرانيق فيبطلها الشيخ عبده ويقول انها مستحيلة " نظرا وعرفا وذلك ان هذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيدا التئام متناقض الاقسام ، ممتزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف والنظم "(٤) .

ثم ان وصف العرب لآلهتهم بانها الغرانيق لم يرد كما يقرر الشيخ عبده في نظمهم ولا في خطبهم ، ولم ينقل عن احد ان ذلك الوصف كان جاريا على السنتهم ، وانما ورد الغرنوق والغرنيق على انه اسم لطائر مائي اسود او ابيض ، والشاب الابيض الجميل ، ولا شيء من ذلك يلائم معنى الآلهة او وصفها عند العرب(٥) .

وهنالك شبهة اخرى على الاسلام اذاعها بعض كتب المستشرقين(٦) وهي مسألة زيد وزينب . يقول محمد عبده مبطلا رأي هؤلاء في ما يتعلق بحب الرسول لزينب : " لو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم لكان اقوى سلطانه عليه جمال البكر في روائه ونضرة جدته ، وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب ، ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة ، ولكنه لم يرغبها المولاه ، فكيف يمتد نظره اليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد ان صارت زوجة لعبد من عبيده انعم عليه بالعتق والحرية "(٧) .

---

١) تفسير سورة الفاتحه ص ١٧٩
٢) المصدر نفسه ص ١٨٠ - ١٨١
٣) المصدر نفسه ص ١٨١
٤) المصدر نفسه ص ١٦٨
٥) نقلا عن هيكل " حياة محمد " ص١٦٢
٦) هيكل ص ٣٠٨
٧) تفسير سورة الفاتحه ص ١٨٧

ويقرر الشيخ عبده ان الحكمة من تزويج زيد بزينب ثم زواج النبي منها بعد تطليق دعيه لها انما هي كسر عادة مألوفة عند العرب ومقدمة لتقرير شرع (لكيلا يكون على المؤمنين حرج في ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا) (١) .

وهنا قضية تستمد اشكالها من القرآن نفسه وهي مسألة الاعمال الانسانية اهي من فعل الانسان ام من خلق الله وفعله . ولهذا مساس ظاهر بمفهوم القدر في الاسلام . وقد وقع الخلاف في هذه النقطة بين فرق الجبرية والقدرية كما هو معروف في سالف عصور المسلمين . وطال الجدل حول هذه المعضلة . وطعن فريق من علماء الغرب في الاسلام لما رأوه فيه من انحلال في الارادة عزوه الى عقيدة القدر . وقد اطلع جمال الدين حين اقامته في باريس على رأي الأوروبيين في هذا الصدد فألف مقالة تحت عنوان القضاء والقدر ادرجها في جريدة العروة الوثقى (٢) . وكان الشيخ عبده تلميذه هو الذي صاغ معاني الاستاذ بقلمه اذ كان محرر الجريدة . وبعد ان ينفي المقال معنى الجبر عن العقيدة الاسلامية يذهب الى توكيدها بتحليل القضاء والقدر تحليلا علميا على الشكل الآتي :

" الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع ، بل ترشد اليه الفطرة ، ويسهل على من له فكر ان يلتفت الى ان كل حادث له سبب يقارنه في الزمان ، وانه لا يرى من سلسلة الاسباب الا ما هو حاضر لديه ، ولا يعلم ماضيها الا مبدع نظامها ، وان لكل منها مدخلا ظاهرا فيما بعده بتقدير العزيز العليم ، وارادة الانسان انما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة . وليست الارادة الا اثرا من آثار الادراك . والادراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس . وشعورها بما اودع في الفطرة من الحاجات فللظواهر الكون من السلطة على الفكر والارادة ما لا ينكره ابله فضلا عن عاقل ، وانما مبدأ هذه

---

١) تفسير سورة الفاتحة ص ١٩٢ - ١٩٣

٢) العروة الوثقى ص ١١٤ - ١٣٠

الاسباب التي نرى في الظاهر مؤثرة انما هو بيد مدبر الكون الاعظم الذى ابدع الاشياء على وفق حكمته . وجعل كل حادث تابعا لشبهه كأنه جزاء له . خصوصا في العالم الانساني (١) .

ثم يقرر العقال ان الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجرأة والاقدام . وهو يطبع الانفس على الثبات ومقارعة الاهوال ويحليها بالجود والسخاء (٢) .

ولقد واصل الشيخ محمد عبده جهاده في هذا المضمار يقوّم عقيدة القدر في عقول المسلمين فكتب مقالا في ذلك تحت عنوان : " في افعال العباد ونسبتها تارة اليهم وتارة الى الله تعالى " (٣) . وكان هذا جوابا على سؤال رفع اليه عن بيان وجه الجمع بين قوله تعالى " وأن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا " وقوله تعالى عقيبها " ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك وارسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا " .

فسر الشيخ عبده قوله تعالى " قل كل من عند الله " كما يلي : " ان السبب الاول وواضع اسباب الخير والشر المنعم بالنعم والراني بالنقم انما هو الله وحده وليس لبعض ولا لشيء مدخل في ذلك ، فهو بيان للفاصل الاول الذى يرد اليه الفعل فيما لا تتناوله قدرة البشر ولا يقع عليه كسبهم (٤) " . ثم انتقل الى الآية الثانية فقال :

" هذا فيما يتعلق ببعض بيده الامر الاعلى في الخير والشر والنعم والنقم ، اما ما يتعلق بسنة الله في طريق كسب الخير والتوقي من الشر والتمسك باسباب ذلك فالامر على خلاف ما يزعمون (٥) " .

---

١) العروة الوثقى ص ١١٩ — ١٢٠
٢) المصدر نفسه ص ١٢١ — ١٢٢
٣) تفسير سورة الفاتحة ص ١٥١ — ١٥٧
٤) المصدر نفسه ص ١٥٢
٥) المصدر نفسه ص ١٥٣

ويرى الشيخ عبده ان الله وهب البشر قوى عقلية تهديهم من الشقاء وتدلهم على سبل السعادة اذا هم استعطوها فيما وهبت لأجله . فكل ما يصيبه الانسان من النعم فمصدره تلك المواهب الالهية ، فهي اذن من الله لانه هو مانح القوى والهداية والانسان لم يأتي بشيء سوى استعمال ما وهب الله . " فاتصال الحسنة بالله ظاهر ، ولا يفصلها عنه فاصل لا ظاهر ولا باطن "(١) ، و " ما اصابك من حسنة فمن الله " .

اما الاهمال في النظر واغفال هدى العقل والاعراض عما اودع الله في شرائعه والانصياع لداعي الهوى واساءة الاختيار فذلك استهداف للعاقبة المرة والنتائج الاليمة وان كان الله هو الذي يسوق ذلك جزاء وفاقا . " ونسبة الشر والسيئات الينا في هذه الحالة ظاهرة الصحة "(٢) .

" ان المواهب الالهية بطبيعتها متصلة بالخير والحسنات وانما يبطل اثرها اهمالها او سوء استعمالها وعن كلا الامرين يساق الشر الى اهله ... فحق ان ينسب اليهم ما اصيبوا به "(٣) . وحق عليهم قول ربهم " وما اصابك من سيئة فمن نفسك " .

بهذا الشكل يقرر الشيخ عبده نقطة هامة وهي ان النعم وليدة الاختيار الحسن هو سببها والله مرسلها وان النقم سليلة سوء الاختيار هو كاسبها والله سائقها فمن نظر الى السعادة والشقاوة من زاوية الخلق والفعل لم ير الا الله المنفرد في تسيير خلقه ومن التفت اليهما من حيث الاختيار والكسب الارادي بدا له الانسان بثياب الحرية لا ينزعها عنه نازع واتضح له انه هو المتسبب للعواقب بما يختاره من المقدمات والسنن "(٤) .

وهذا من جيد ما اتى به الشيخ عبده في ميدان التوحيد الالهي .

---

١) تفسير سورة الفاتحة ص ١٥٣
٢) المصدر نفسه ص ١٥٤
٣) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها
٤) المصدر نفسه ص ١٥٥

محاربة التبشير النصراني — .

يذكر رشيد رضا ان الفرنسيس والانكليز وغيرهم قد اعتدوا على الاسلام في مصر بالتعليم الالحادي وبجميع وسائل التنصير من دعاية لسانية وكتابية وتعليم وتطبيب واغراء واغواء بالمال والشهوات وغير ذلك . يقول :

" وقد وجدوا من حكومتها المتفرنجه كل مساعدة مالية وادارية على جميع ذلك . وكان نجاحهم في التعليم الالحادي اتم من غيره ... واشتد هذا النفوذ من عهد اسماعيل باشا الى اليوم فكانت مدارس الاجانب الالحادية التنصيرية تساعد من الحكومة المصرية بالمال وبهبة المباني والاراضي وغير ذلك (١) " .

ومن ما يروى عن هذه المدارس انها اجتذبت عموم الطبقات المصرية من اولاد الوزراء حتى اولاد الفقراء واصبح الناس في مصر يفضلون تربية المبشرين والمبشرات على تربية المدارس المصرية الاميرية وغيرها لأن الدنيا قد صارت بأيدي هؤلاء الافرنج فاخذوا يطلبونها بالزلفى عندهم (٢) .

يذكر ان اول من فطن لمقاومة التنصير من المسلمين في مصر جمال الدين ومحمد عبده . وما حدث لهما في هذا الصدد ان سمعا بفتى مصري تنصر تحت تأثير التبشير الاميركاني وصار يتعرض بدافع من هؤلاء المبشرين للوعظ العام الذي يحضره كثير من المسلمين في كنيستهم بحي الازبكية فكبر ذلك على السيد جمال فعهد الى جماعة من الايرانيين بخطفه من الكنيسة ووضعه في مكان خفي وذهب هو وتلميذه محمد عبده الى ذلك المكان واقنعا الفتى بصحة الاسلام (٣) .

ثم عملا لدى الحكومة لتلافي عواقب التبشير فلم يجدا اذنا صاغية . ولما عين الشيخ عبده محررا في جريدة الوقائع الرسمية اخذ يستخدم قلمه في مقاومة التبشير في البلاد . ولكن لهجته كانت غاية في اللطف ونوعا من تنبيه الغافلين عن مدارس دعاة النصرانية دون اثارة اي تعصب .

---

١) المنار م ٣٣ (١٩٣٣) ص ٢٣١ ، ان التعليم الالحادي غير التعليم التنصيري وفي النسوية والجمع بينهما تناقض وقع فيه رشيد رضا .
٢) المصدر نفسه ص ٢٣١ — ٢٣٢ ٣) المصدر نفسه ص ٢٣٣

فهو يبين في مقال نشره سنة ١٨٨١ (١) صلة الاحترام بين اهل الاديان ومعتقداتهم وحرصهم على نشرها بين الناس جميعا بحكم دافعين اثنين فيهم . احدهما ارادة الاتحاد على التعاون والانتفاع الذاتي والاخر الشفقة الانسانية الباعثة على ايصال ما يعتقد انه وسيلة النجاة في الحياة الاخرة بعد ان تفارق الارواح ابدانها (٢) .

ثم يوضح اثر المدارس المنتشرة في الارض لهذه الغاية في الاطفال الناشئين والاحداث النابتين في هذه المدارس . يقول :

" فان العقول في سن الصغر ساذجة ، والاذهان خالية ، وهي مستعدة لقبول ما يرد اليها من الافكار ، قابلة للتأثر والانفعال ، بما يطرأ عليها من صور الاعمال والاراء والاحوال ، خصوصا اذا كان جميع ذلك صادرا من شخص تكبره النفس وتعظم قدره مثل الاستاذ والمؤدب والمربي ، فمتى وجد الولد صغيرا في حجر معذبين ومعلمين يربّون عقله ويغذون روحه بغذاء علومهم ومعارفهم ، فلا ريب تؤثر فيه احوالهم واعمالهم واقوالهم ، وتنطبع في نفسه صور ما هم عليه ، فايا كان اباؤه واسلافه الاولون لا يحفظ عقائدهم ، ولا هيئات احوالهم ، بل يتشكل عقله ولبه بالاشكال التي يفيضها عليه معذبوه ومعلموه ايا كانوا ، فان خالفت مذاهبهم مذاهب آبائه واسلافه فلا شك في تحول مذهب الولد وانحرافه الى مذهبهم لتأثير احوالهم عليه " (٣) .

ويذهب الشيخ عبده في الحيطة الى منتهاها حين يواصل قوله بما يلي :

" بل ان هذا التغيير الذي يظهر في اعتقاد التلامذة من تأثير حالة معلميهم ومعذبيهم قد يحصل بدون قصد من المعلمين ، بل بحكم السريان والعادة من طول المعاشرة وكثرة المعارسة " (٤) .

---

١) رضا ج ٢ ص ١٦٤ ، عنوان المقال " تأثير التعليم في الدين والعقيدة " .
٢) المصدر نفسه ص ١٦٥
٣) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها
٤) المصدر نفسه ص ١٦٦

" وعلى هذا حال المدارس المنتشرة في اقطارنا المصرية التي اسسها وانشأها رسل الطوائف الدينية لم يكن الغرض منها التعيش والاكتساب ، وانما الغرض منها نشر العلوم ، وبث انوار التمدن (على ما يقولون) كمدارس الفرير والامريكان والانكليز وغيرها "(١) .

ويأتي بعد ذلك بمثال واقعي على نتائج هذه المدارس وهو ان تلميذا مصريا مسلما قضى في مدرسة الامريكان البروتستانتية ثمانية عشرة سنة من عمره قد اظهر التمذهب بالمذهب البروتستانتي ودعا اباه واخوته الى موافقته على عقيدته الجديدة .

ويشير اخيرا الى ما كان لهذه المسألة من دوي بين الناس حتى انتهى الامر بفرار الولد الى حيث لا يعلم والده وشقاء الاسرة(٢) .

ويستخلص من ذلك المغزى الذي يريد تقريره ونشره ليقاوم التبشير فيقول :

" فمن الواجب على كل شخص يخاف على دينه او مذهبه ، سواء كان مسلما او مسيحيا او يهوديا ... ان لا يبعث باولاده وهم صغار ... الى مدارس يتولى التعليم فيها والادارة من ليسوا على مذهبه او دينه ، ومن تساهل في ذلك ثم تغير اعتقاد ابنائه ، وانقلبت مذاهبهم الى مذاهب اخرى فلا يلومن الا نفسه "(٣) .

" وفي مقال ثان يذيع نداء اقوى فيقول : " ثم اننا نعيد انذار الآباء هداهم الله بان لا يسلكوا باولادهم في التربية مسالك توجب لهم قلق الفكر ، وتشويش البال ، وان لا يبعثوا بابنائهم الى المدارس الاجنبية التي تغير مشاربهم ومذهبهم حتى يأذن الله تعالى بمنع التعليم الديني في جميع مدارس العالم ، فتكون المدارس قاصرة على العلوم غير الدينية والصنائع ، ويكون للدين مواضع مخصوصة لتعليمه والتربية بمقتضاه "(٤) .

---

١) رضا ج ٢ ص ١٦٦
٢) المصدر نفسه ص ١٦٧
٣) المصدر نفسه ص ١٦٨
٤) المصدر نفسه ص ١٧١

وقد سعى الشيخ عبده اخيرا لوضع المدارس الاجنبية تحت مراقبة نظارة المعارف لينظر فتتشو النظارة في نظام التعليم وسيره فيها ولكنه توصل الى ذلك بتمهيد حكيم . ذلك انه حين كان عضوا في مجلس المعارف الاعلى اقترح على المجلس مرة ان يطلب من الحكومة مبلغا عظيما من المال يوزع على المدارس الاجنبية مكافأة لها على خدمة العلم ونشره في البلاد . وتقرر اقتراحه باكثر الاراء . وفي جلسة اخرى ابدى الاقتراح الثاني وهو تقرير المجلس وجوب جعل المدارس الاجنبية تحت مراقبة الحكومة وانتهى الامر بتقرير اقتراحه (١) . وكتب في منفاه ببيروت سنة ١٨٨٧ لائحة للاصلاح الديني ارسلها الى شيخ الاسلام بالآستانه ينصح فيها الدولة في ما يتعلق بامور التعليم الديني . واذ اشار الى الضعف الديني ذكر ما لابسه من تسرب شياطين الاجانب الى البلاد الاسلامية واستلتهم لكثير من المسلمين الى الاخذ بدسائسهم ووساوسهم وقلب عقائد الناشئة الذين يتعلمون في مدارسهم التبشيرية حتى خوت قلوب هؤلاء التلاميذ المسلمين ((من كل عقد اسلامي ، واصبحوا كفارا تحت حجاب اسم الاسلام)) (٢) .

الرد على هانوتو . —

بلغ الشيخ محمد عبده في هذا الرد الذروة في مقاومته للتبشير النصراني والطعن في الاسلام ونراه هنا قد فارق تلك اللهجة الوادعة التي كان يستنطها في جريدة الوقائع المصرية واستبدل بها اسلوبا آخر من النوع العنيف والدفاع المتين .

يقول رشيد رضا واصفا دفاع محمد عبده عن الاسلام :

« اشهر ما كتبه في هذا الموضوع رده على موسيو هانوتو — احد وزراء فرانسة وكتابها — في الاسلام والعقائد السامية والآرية ، وما يتعلق منها بالاسلام والنصرانية . ثم ما كتبه في الرد على مجلة الجامعة في فلسفة ابن رشد والمقابلة بين الاسلام والنصرانية في التسامح الديني والعلم والمدنية » (٣) .

---

١) رضا ج ١ ص ١٤٤ — ١٤٥

٢) رضا ج ٢ ص ٥٠٧

٣) المصدر نفسه ص ٤٠٠

سبب هذا الرد الذى كتبه الشيخ عبده ان مسيو هانوتو وزير خارجية فرانسا من قبل نشر في جريدة الجورنال في باريس مقالا في الاسلام والمسألة الاسلامية ترجمته جريدة المؤيد ونشرته باللغة العربية واتفق ان اطلع عليه الشيخ عبده وهو عائد في القطار الى عين شمس التي فيها داره فكتب ردا على مقال هانوتو وارسله في الغد الى المؤيد فنشرته (١) .

٢ان الدافع الاول الذى بعث الشيخ عبده على كتابة هذا الرد ، فيما يظهر ، هو المنافحة عن الدين . ذلك لأن المسيو هانوتو تعرض في مقاله الى بعض المعتقدات الدينية في الاسلام والمسيحية فغض من قيمة الاسلام ورفع شأن المسيحية . وبعد ان تكلم في القدرة الالهية والاختيار الانساني اتبع ذلك بقوله :

" وغاية ما عرف منذ العصر السالفة الى الآن انه وجد مذهبان تشاطرا فيما بينهما العقائد البشرية من تلك الوجهة المهمة ، فالاول منهما يقول بتناهي الربوبية في العظمة والعلو ، وجعل الانسان في حضيض الضعف ودرك الوهن ، ويذهب الثاني الى رفع مرتبة الانسان وتخويله حق القرب من الذات الالهية بما فطر عليه من ايمان وارادة ، وبما اتاه من اعمال صالحات وحسنات (٢) " .

" ويقرر المسيو هانوتو هنا ان العقيدة الاولى تفضي الى نتيجة طبيعية لها وهي تحريض الانسان على اغفال شؤون نفسه ، وسريان القنوط الى اعماق فؤاده والوهن الى صلب عزيمته في حين ان الاعتقاد الثاني يسوق الفرد الى ميدان الجلاد والعمل ويلقي به في غمرات التنافس الحي (٣) . ويضرب على ذلك مثالا في البوذية الفانية في الذات الالهية وقدماء اليونان الذين يعتقدون بالانسان البطل الذى في مكنته ان يصير في عداد الالهة (٤) .

---

١) رضا ج ٢ ص ٤٠٠

٢) المصدر نفسه ص ٤٠٧

٣) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها

٤) المصدر نفسه ص ٤٠٨

ويعقب هانوتو على ذلك بقوله :

" وقد ظهرت على اطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان احداهما ربانية ، والثانية بشرية ، تمثلان ذينك المذهبين المتناقضين ، ولكن بتلطيف في التناقض . اما الاولى فهي الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الاربيين ، والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية ، وان كانت مشتقة منه ، وخصنا من دوحته ومن خصائص هذه الديانة ترقية شأن الانسان بتقريبه من الحضرة الالهية على حين ان الديانة الثانية وهي الاسلام المشوبة بتأثير مذهب السامية تحط بالانسان الى اسفل الدرك وترفع الاله عنه في علاء لا نهاية له "(١) .

ويوازن بعد ذلك بين الثالوث المسيحي القائل بأن يسوع المسيح اله بشر لما في نصه : " الاب والابن وروح القدس " من اشارة الى اتصال الابن بالاب بصلة روح القدس وبين التوحيد الاسلامي المشار اليه في النص " لا اله الا الله "

يقرر هانوتو هنا ان في الثالوث مجلبة للثقة حيث ان الوسائط بين المسيحيين وذات الاله العلية موصولة ، في حين ان المسلمين حيارى في فضاء يظلون يهوون فيه بحسب ناموس لا يتحول ولا يتبدل ولا يجدون لهم حيلة في ذلك سوى متابعة الصلوات والدعوات " والاستغاثة بالله الاحد الذي هو مستودع الآمال ، ولفظة الاسلام معناها ؟ الاستسلام المطلق لارادة الله "(٢) .

ويستشهد فيما يلي ذلك من مقاله باقوال للمسيو كيمون هي غاية في الطعن على المسلمين في دينهم ونبيهم (٣) .

كان جواب الشيخ عبده على المسيو هانوتو رافعا لشبهته في القدر كما تصورها . اكد الشيخ عبده ان مسألة القدر لقيت خلافا نظريا في جميع الملل ثم بين براءة القرآن من عقيدة الجبرية . قال :

---

١) رضا ج ٢ ص ٤٠٨

٢) المصدر نفسه ، ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩

٣) المصدر نفسه ص ٤٠٩

" جاء القرآن الشريف — وهو الكتاب المنزل بالاسلام — يعيب على اهل الجبر رأيهم وينكر عليهم قولهم (لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) بقوله (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون) واثبت الكسب والاختيار في نحو اربع وستين اية (١) " .

واستدل بحياة النبي محمد وجهاده المتواصل ، وهو اول المسلمين فهما في للقرآن ، على بطلان المذهب الجبري (٢) وطهارة الاسلام من اذيته وبلواه .

اكد الشيخ عبده ان الجدل في العقائد والخوض في القدر دخلا في الاسلام بدخول الموالي من عجم الفرس والروم في الدين حاملين اليه ما عندهم من شقاق (٣) .

ورد على المسيو هانوتو في مقال اخر بما اظهر نزاهة التوحيد الاسلامي وسمو عقيدته في الله عن مخالطة الطادة ان في شكل حيوان او صورة انسان وتساءل في الختام كيف يتسع المحدود من المخلوق الى غير المحدود وكيف يحيط من له نهاية بما لا نهاية له (٤) .

وكان اخر كلامه في هذا الصدد ما يرد به عطه ورده على المسيو هانوتو معلنا انه لم يحطه على تسيير قلمه الا سطوة الاخير على الدين في اصلين من اهم اصوله وتقريره ان المسلمين لا يزالون منحطين ما داموا مسلمين (٥) .

---

١) رضا ج ٢ ص ٤٢٢

٢) المصدر نفسه الصفحة ذاتها

٣) المصدر نفسه ص ٤٢٣

٤) المصدر نفسه ص ٤٢٦ — ٤٢٨

٥) المصدر نفسه ص ٤٦٧ — ٤٦٨

الفصل الرابع

اعماله في ميدان الاصلاح الاسلامي

١ - في الجمعية الخيرية الاسلامية :

يرى الدكتور آدمز ان تنقل الشيخ محمد عبده في اوربة اطلعه على الاعمال الخيرية المنظمة في بلدانها وأوحى اليه بضرورة احتذاء المسلمين للغرب في هذا الاتجاه (١) . ويحملني على تأييد هذا الرأى ما اشار اليه الشيخ عبده من اثر الأسفار الى تلك البلاد التي اكد الشيخ انها تجدد في نفسه العزم على الاصلاح كلما فتر في بلده (٢) .

دعا الشيخ عبده الى تأسيس هذه الجمعية . فلما بدئ بها سنة ١٨٩٢ اتهمت انها تضمر مقاصد سياسية فدافع عنها محمد عبده واقنع اهل الحل والعقد بانها خيرية محضة (٣) . وكان يدعو الامراء والوجهاء والاغنياء الى الاشتراك فيها وساعدتها (٤) .

وفي سنة ١٣١٨هـ (١٩٠٠) م انتخب رئيسا لها فزاد اجتهاده في خيرها حتى ظهر ارتقاؤها في زمن رياسته ظهورا محسوسا وظل يرأسها الى ان حانت وفاته (٥) .

٢ - في اصلاح الازهر :

انتسم عصر اسماعيل بنهضة علمية قامت في مصر نتيجة لما بذل من جهود في سبيل ترقية التعليم . فقد افتتح المدارس وأوفد البعثات الى اوربا (٦) . وكان ينفق على التعليم بسخاء وارتفع ميزانية المعارف في عهده الى ٧٥٠٠٠ جنيه (٧) .

---

١) آدمز ص ٧٩
٢) المنار م ٨ ص ٤٦٥
٣) وما ج ١ ص ٧٢٦
٤) المصدر نفسه ص ٧٢٧
٥) المصدر نفسه الصفحة ذاتها
٦) الرافعي ، عصر اسماعيل ج ١ ص ٢٠٨ وص ٢١٥
٧) المصدر نفسه ص ٢١٧

وقد توجه الخديو الى اصلاح الازهر رغبة في الحصول على قضاة اكفاء ينهضون بالمحاكم الشرعية واساتذة مدرسين يسدون الفراغ الكبير في المدارس المفتوحه (١) . وقد ساعد على مباشرة الاصلاح في الجامع ان تولى مشيخته سنة ١٨٧٠ الشيخ محمد العباسي المهدى الحنفي وكان ذا علم وذكاء (٢) . وضع الشيخ العباسي اول قانون للازهر فيما يتعلق بالتدريس والتخرج فصدرت بتنفيذه ارادة سنية سنة ١٨٧٢ (٣)

نص هذا القانون على تحديد العلوم المطلوبة في الامتحان لنيل شهادة العالمية في احد عشر علما هي :

الفقه — الاصول — التوحيد — الحديث — التفسير — النحو — الصرف — المعاني — البيان — البديع — المنطق (٤) — . ورأى احد الباحثين (٥) ان هذا التحديد ينم عن قصر نظر اذ طبع الثقافة بطابع المهنة الى درجة قصوى .

على ان الاصلاح الذى كان يحتاج اليه الازهر لم يكن لينهض به اصباغ الصفة الرسمية على الامتحان او حصر العلوم المطلوبة في عدد معين . ولكن المهم ان يتغير الاعداد الفكرى ويدخل في المنهاج علوم تعين الناشئة على معرفة الحياة المستجدة ليكونوا فيها رجال كفاح يساهمون في خدمة انفسهم وامتهم .

يقول سه كالي : " ولما اصبح التنظيم السياسي والاجتماعي في مصر قائمين على اصول جديدة غير اصول القرآن اصبحت الاحوال العامة تتطلب من الازهر تطورا حريصا لياتي بنتائج تؤدى حاجات الحياة الجديدة (٦) .

كان الشيخ عبده هو الذى يليق بهذا الاصلاح . فقد كان اعرف الناس بما عليه الازهر . قضى في ربوعه اثنتي عشرة سنة واطلع على شيوخه ومناهجه وعيوبه . ثم حدق النظر في آفاق الغرب وعلومه واقتبس من روح استاذه جمال الدين

---

١) اثيل سه كالي ص ٩٧
٢) الرافعي ، عصر اسماعيل ج ١ ص ٢٩٤
٣) فتحي زغلول ، نقلا عن عبد الرازق ص ٤٣
٤) يونس وتوفيق ص ٩٠
٥) هي ورشدان ص ٤٠٠ — ٤٠١
٦) سه كالي ص ١١٥

احتراما للفكر وادراكا لطبيعة العصر فكان كل ذلك بالاضافة الى استعداده ونشاطه حافزا له على بذل الجهود لتجديد الازهر . رأينا

رأينا في فصل سابق ما كتبه محمد عبده في مقال الدعوة الى العلوم العصرية (١) . وكان لم يزل بعد طالبا ازهريا . فلما احرز العالمية شرع في تدريس العلوم الكلامية والمنطقية في الازهر رجاء تقويم الفكر وتحرير العقيدة (٢) .

كان الشيخ عبده يعلق على اصلاح الازهر املا كبيرا ويقول :

" ان اصلاح الازهر اعظم خدمة للاسلام فان اصلاحه اصلاح المسلمين وفساده فساد لهم "(٣).

ذلك لانه اكبر جامعة اسلامية يقصدها طلاب العلم الديني من كل حدب وصوب من اقطار العالم الاسلامي ينهلون من موردها ويصدرون عنها ويبصرون الدنيا بها فاذا عادوا الى اوطانهم نشروا ما تعلموا واذاعوا الثقافة التي نهلوا في اروقة الازهر وحول اعمدته فاصلاحها اذا اصلاح وتكوين للعقلية الاسلامية (٤) .

لم ينجح الشيخ عبده في اصلاح الازهر زمن الخديو توفيق لقيام شيوخ الازهر في وجه دعوته لادخال العلوم الحديثة . ولم ينل من تأييد الامير ما يعينه على تحقيق فكرته (٥) . فلما صعد على العرش عباس باشا حلمي سنة ١٨٩٢ تجدد عزم الشيخ على الاصلاح . وجد محمد عبده امير البلاد مثبورا من استيلاء الانكليز على جميع اعمال الحكومة فكاشفه برأيه وذكر له ان هنالك ثلاث مصالح قد تركها المحتل للخديو لانها دينية وهي : الازهر والمحاكم الشرعية والاوقاف ويمكنه باصلاحها اصلاح التربية والتعليم والمساجد والارشاد والبيوت وان الحكمة تدعو الى المبادرة بهذا العمل قبل تدخل الاجانب في شانها "(٦) .

---

١) انظر ص ٣٩ وما بعدها
٢) رضا ج ١ ص ١٠٣
٣) المصدر نفسه ص ٤٢٥
٤) عثمان امين ص ١١٢
٥) يونس وتوفيق ص ٩٨
٦) رضا ج ١ ص ٤٢٧

ولما ظهر رضا الاميرعن هذه الفكرة رفع محمد عبده الى سموه تقريرا مسهبا عن الازهر وطرق اصلاحه (١) . فصدرت ارادة سنيه بذلك في قانون سنة ١٨٩٥ (٢) . ومنذ ذلك الحين بدأ الازهر يتطور ويسير سيرا تقدميا . نص القانون على تأليف لجنة دائمة تسمى مجلس ادارة الجامع الازهر يعهد اليها تنظيم قواعد التدريس والاروقة والمرتبات ودرجات العلماء وغير ذلك مما يرفع شأن الجامع ويديم نجاحه (٣) . وقد الف المجلس من ستة اعضاء يمثل فيه الشيخ عبده وصديقه عبد الكريم سلمان الجانب الحكومي دون ان يكون لشيخ الازهر ومجلس ادارته رأي في انتخابهما (٤) .

كان الشيخ محمد عبده من بادئ الامر الروح المحركة لمجلس الادارة (٥) . ويرى رشيد رضا ان الاصلاح الذي نشده محمد عبده ذو وجهين : صوري ومعنوي .

فالاول يرمي الى تنظيم الازهر للقضاء على فوضى التعليم فيه والشغب . والى توسيع دائرة المعارف والعلوم وترقية اللغة العربية .

اما المعنوي فاصلاح العقلية وغرس الاستقلال بالعلم والفهم واصلاح الاخلاق بالصدق والاخلاص وعزة النفس والسخاء والوفاء الخ (٦) ...

اثمرت جهود الشيخ عبده في مجلس الادارة ظهور الاصلاحات التالية :

١ — زيادة المرتبات . —

سعى الشيخ لدى الحكومة لتعيين مبلغ من الخزينة لمساعدة الازهر فوضعت نظارة المالية في ميزانية عام ١٨٩٥ مبلغ الفي جنيه في السنة معونة للعلماء فوق ما كان لهم فيها من قبل وصدر الامر العالي بذلك في ٢/٩ يونيو ١٨٩٥ (٧) . وكان النظام الذي سنه مجلس الادارة بارشاد الشيخ عبده لتوزيع هذه المعونة عادلا مزيلا لفساد النمط القديم الذي تزلف العلماء لشيخ الجامع لينالوا نصيبا من اوقاف الازهر (٨) .

---

١) مذكراتي في نصف قرن ج ٢ قسم ١ ص ١٨٥
٢) يونس وتوفيق ص ٩٧ — ٩٨
٣) مذكراتي ج ٢ قسم ١ ص ١٨٥
٤) يونس وتوفيق ص ٩٨
٥) آدمز ص ٦٩
٦) رضا ج ١ ص ٥٦٧
٧) المصدر نفسه ص ٤٣٣
٨) المصدر نفسه ص ٤٣٣ ، جعلت هذه المعونة رواتب شهرية ثابتة وفقا لدرجات العلماء في العالمية التي يحملونها .

٢ — قانون كساوى التشريف . —

استصدر مجلس الادارة قانونا لمنع كساوى التشريف التي كان يلبسها العلماء في مناسبات معينه لتميزهم عن غيرهم (١) . وكانت تعطى من قبل لمن ظهرت نروته او كان له صديق وجيه حتى اخذها بعض من لا يقدر ان يقرأ فضلا عن ان يفهم (٢) . فكان عمل المجلس في هذا الصدد تقييد ارادة شيخ الجامع ومنع الكساوى لمن يستحقها (٣) .

٣ — نظام الجرايات . —

زاد المجلس برأى الشيخ عبده مقادير الجرايه التي تصرف للمجاورين فارتفعت كميتها من ٥٠٠٠ رغيف في اليوم الى ١٥٠٠٠ وزيد في الاوقاف المحبوسة على الازهر حتى بلغت ١٤٧٥٠ جنيها بدلا من ٤٠٠٠ (٤) .

٤ — ساكن المجاورين . —

عمل الشيخ عبده على تجديد الاثاث في هذه المساكن وايصال المياه الصالحة للشرب اليها وحول قناديل الزيت الضعيفة الى مصابيح قوية تضاء بالبترول وسعى في تعيين طبيب خاص للازهر وانشاء صيدلية مجانية فيه (٥) . ثم انشأ مستشفى للأزهر فيما بعد (٦) .

٥ — اصلاح الادارة . —

عمل المجلس على اعداد مكاتب لادارة الازهر لاجل الشؤون الادارية وتعيين عدد من الكتاب لمساعدة شيخ الجامع .

---

١) يونس وتوفيق ص ١٠٠

٢) رضا ج ١ ص ٤٣٨ — ٤٣٩

٣) يونس وتوفيق ص ١٠٠

٤) عبد المنعم حماده ص ١٦٣

٥) يونس وتوفيق ص ١٠١

٦) رضا ج ١ ص ٤٨٢ — ٤٨٣

٦ — المنهاج والامتحانات . —

الف الشيخ عبده لجنة من ثلاثين عالما من علماء الازهر لتكتب تقريرا مسهبا الى مجلس الادارة عن العلوم المدرسة وعن العلوم التي ترى وجوب اضافتها لجعل التعليم راقيا حسنا . واستطاع عن هذا الطريق ادخال بعض العلوم الحديثة بشكل لا يثير حفيظة العلماء . وعينت اللجنة علوم المقاصد وعلوم الوسائل واضافت الى الثانية : الحساب والجبر وتاريخ الاسلام والانشاء ومتن اللغة وآدابها ومبادىء الهندسة وتقويم البلدان (١) . وتقرر ابطال قراءة الحواشي والتقارير المطولة خلال السنين الاربعة الاولى من التعليم الازهري (٢) .

٧ — اصلاح المكتبة . —

احضرت الكتب الموجودة في الازهر من مخابئها وجمعت ورتبت في مكتبة اعدت لها وقد كانت من قبل رثة مهجورة تعلوها طبقات الغبار (٣) .

٨ — القاء الدروس . —

واخيرا نجد الشيخ محمد عبده قد ساهم بنفسه في اصلاح التعليم عن طريق الدروس التي كان يلقيها في التوحيد والتفسير والبلاغه والمنطق (٤) . فكان لهذه الدروس اثر باد في احياء اللغة العربية واساليبها الفصحى اذ كان يستعمل اثناءها التعابير الفصيحة واللسان المستقيم . وقد سعى فوق كل ذلك لدى ديوان الاوقاف حتى احرز مبلغ ١٠٠ جنيه نفقة على احد العلماء ليدرس ادب اللغة العربية في الجامع الازهر (٥) .

يقول الدكتور آدمز مقدرا اصلاحات الشيخ عبده في الازهر :

" ان مقدار ما وفق اليه من نجاح لم يكن متناسبا مع عظمة اغراضه ، ولا مع اخلاصه في مساعيه ، وما بذل من جهد مشكور . في الحق انه ادرك جزءا من وطره ،

---

١) يونس وتوفيق ص ١٠١
٢) المصدر نفسه ص ١٠٢
٣) آدمز ص ٧٢ ، رضا ج ١ ص ٤٥٢
٤) رضا ج ١ ص ٧٦٩ — ٧٧٠ ، آدمز ص ٧٢
٥) حماده ص ١٦٦ .

وحقق الجانب الهادى من غاياته ، اما النواحي الروحية ، وهي اجل خطرا ، فكل ما نستطيع ان نقوله في شأنها هو انه نجح في وضع الأسس التي يمكن ان يقوم عليها البناء في المستقبل (١) .

كانت خاتمة الشيخ عبده مع الازهر ان رجحت كفة المحافظين على مساعيه تحت تأثير انقلاب الخديو عليه وامداده لحركة المعارضة ضده ولما تراءى له شبح الاخفاق استقال من مجلس الادارة في ١٩ مارس سنة ١٩٠٥ وكان ذلك آخر عهده بحركة الاصلاح اذ توفي بعد شهور قليلة (٢) .

وفي سنة ١٩٣٠ م ازهر غراس الاستاذ محمد عبده على يد الشيخ المراغي واصبح الازهر جامعة ازهرية ذات كليات ثلاث :

١ - كلية اللغة العربية
٢ - كلية الشريعة
٣ - كلية اصول الدين (٣)

واذا دقق الباحث في هذه الكليات الفاها عناوين اخرى لاصلاحات الشيخ عبده الهادفة الى احياء اللغة العربية وتهذيب الشريعة من تقاليد اهل الجمود والرجوع بالدين الى ينابيعه الأولى .

٣ - في الافتاء . -

اسبغ الشيخ عبده على هذا المنصب رفعة وجلالا بعد ان كان تقلده يشوب حيويته ويضيق ميدانه (٤) . كان معظم الذين سلفوه في هذه الوظيفة يظنون ان حقل عملهم محدد بالقضايا الرسمية التي تحال عليهم من مصالح الحكومة .

---

١) آدمز ص ٧٣ - ٧٤
٢) المصدر نفسه ص ٧٤
٣) رجب ، الازهر ص ٧٠

اما ما يعرض عليه من الافراد مما يريدون به معرفة حكم الشرع فيه فكان يضرب به عرض الحائط (١) .

فلما تقلد الشيخ عبده محل الافتاء فتح ابوابه لمسائل الافراد واخذ يصدر الفتاوى لكل قاصد له في ارجاء مصر واقطار اخرى (٢) . فانتشرت شهرته في الآفاق وبعد صيته في العالم الاسلامي (٣) .

كان الشيخ عبده يصدر الفتاوى الرسمية متقيدا بالمذهب الحنفي اما الفتاوى الاخرى فكان يستند في تقريرها الى الكتاب والسنة بحسب علمه بهما (٤) .

ومن الغريب ان المفتين قبله كانوا يجيبون بعبارة واحدة على كل استفتاء وارد اليهم من محكمة الجنايات بحكم الاعدام . ونص عبارتهم : " اذا ثبت على هذا الرجل انه قتل الآخر عامدا متعمدا بشرطه حكم بقتله والا فلا " (٥) . ويحكم هذا النص في ما ارى باحتجاب شخصية المفتي من الوجود الفعلي واكتفائه بمركز موهوم . فلما جاء الشيخ عبده انكر هذا وكتب : " انه لا يمكن ان يفتي احد في هذا الحكم الا بعد الاطلاع على وقائع الدعوى وبيناتها والمستندات والحيثيات التي بني الحكم عليها (٦) ". وطلب ارسال صورة صحيحة عن ذلك اليه . فلما دقق فيها اصدر فتواه مبينا ادلته الشرعية والقانونية فكانت محل الاعتبار (٧)

نموذج من فتاواه :

١ — الاستعانة بالكفار واهل البدع والاهواء لنصرة الملة وحفظ حوزة الامة .

ورد هذا السؤال من الهند موجها الى العلماء في مصر . وطلب احد اساتذة الازهر الى الشيخ عبده ان يحقق في المسألة فكان خلاصة رأيه في هذا الموضوع ان الكتاب والسنة وعمل السلف كل ذلك يدل على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين

---

١) رضا ج ٣ ص ٢٩٧
٢) رضا ج ٣ ص ٢٩٧
٣) المنار ج ٨ ص ٤٨٧
٤) رضا ج ١ ص ٦٤٦
٥) رضا ج ١ ص ٦٤٦
٦) رضا ج ١ ص ٦٤٦

على ما فيه خير ومنفعة للمسلمين وقرر ان الذين يكفّرون من يحمد الى هذه الاستعانة لما فيه خير الاسلام او يفسّقونهم فهم بين احد الامرين : الكفر او الفسق (١).

على انني لا اوافق الشيخ محمد عبده على مطابقة هذه الفتوى لما جاء في الكتاب . فالقرآن يبطلها لبطلان نفعها . يقول في حق المنافقين :

" لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولاوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين " (٢) . ولذلك نجده في موضع آخر يقول :

" يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم اكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون " (٣) .

ومهما يكن من امر فالحكم في قضايا الرقاء يتبدل بتبدل الاحوال ولكل ظرف من الظروف المتبدلة حكم خاص . وقد عبر القرآن عن الآيات الفاصلة في الامور المتغيرة بالمتشابهات لتشابه الاحوال الواردة فيها وتشابه الحلول الآتية بها . وقد كان من الواجب ان يرد الشيخ عبده هذا السؤال الوارد اليه ويطلب من مرسله كما طلب من محكمة الجنايات تفاصيل القضية وارسال صورة صحيحة عنها ليدرس النفع المزعوم ويحقق فيه دون الاعتماد على رأيهم . وهنالك يتسنى له اثبات عدم النفع والارشاد إلى ما في الكتاب من نهي .

واذا كان للمفتي دائرة اختصاص في الاسلام فليكون مرجعا في الاحوال المنفردة الخاصة فقط واما اصدار الاحكام الكلية الثابتة فذلك من الآيات المحكمات التي هي ام الكتاب واصول الخير فيه واساس العدالة ومعرفة ذلك لا تتطلب الرجوع الى الافتاء ولا الجدال . وانما هي من عمل العلماء جميعا . وفي مثل هذه انما تدون احكام مطلقة ...

---

١) رضا ج ١ ص ٦٦٢ — ٦٦٦

٢) القرآن الكريم ٩ / ٤٧

٣) القرآن الكريم ٣ / ١١٨

٢ ـ طوفـــان نـــوح ، هـــل عم الأرض كلهـــا ؟

ورد هذا الســـؤال من الشـــيخ عبد الله القدومي من علماء مدينة نابلس ، اراد ان يســـتعين برأي مفتي الديار المصرية في هذا الموضـــوع . ذلك ان بعض طلاب النشء الجديد في بلده اخذوا يقولون ان الطوفان لم يكن عاما وهم ممن يدرســـس العلوم الرياضيـــة (١) .

اجاب محمد عبده ان القرآن لا يحوي نصـــا قاطعا بعموم الطوفان ولا بشـــمول رســـالة نوح لكافة الناس في زمانه . واضاف ان الحديث لا يؤكد ذلك . وعلق على ذلك بأن المطلوب في العقائـــد ان تســـتند الى اليقيـــن . وقـــرر اخيرا ، مســـتندا الى قول عامة المســـلمين بشـــمول الطوفان ، انه لا يجوز لمســـلم ان ينكر ذلك لمجرد احتمال التأويـــل في آيات القرآن . ويرى ان نفي شـــيء مما يدل عليـــه ظاهر الآيات والاحاديث الصحيحة والانصراف عنـــه الى التأويـــل لا يجوز الا اذا قام الدليل العقلي القاطع بأن الظاهر غير مراد . ويختم فتواه بحيطة ترجح ضمنا عموم الطوفان ولا تقطع بجواب حاســـم . اما قول اولئك الشـــبان بأن الطوفان كان خاصـــا ببقعة نوح وانه لم يصـــب قوما كانوا في الصين فيعلق عليـــه الشـــيخ عبده بقـــوله :

" ومن هذى برأيه بدون علم يقيني فهو مجازف لا يســـمع له قول ، ولا يسمح له ببث جهالاتـــه والله ســـبحانه وتعالى اعلم " (٢) .

على انني هنا ايضا لا اوافق الشـــيخ عبده في ان العقائد ، وان كان المطلوب فيها اليقين لا الظن ، تؤخذ من قصص القرآن . وكان الأجدر به ان تكون فتواه على الشكل الآتـــي : ان المراد من القصص في القرآن الاعتبار بها والاتعاظ بعواقبها . اما العقائد فقد افرز لها آيات محكمة تؤخذ منها . والاشـــتغال بأمور الطوفان وغيره عن محكمات الكتاب واصـــول الحق فيـــه هو طلب للتأويل . وقد حذر الكتاب من ذلك وجعله علامة لزيغ القلب عن الحق . وجوابي على ســـؤالكم اســـداء النصيحة لمن تحول اتجاهه عن العمل

---

١) رضا ج ١ ص ٦٦٦
٢) رضا ج ١ ص ٦٦٧

الى الجدل بلزوم الحق الظاهر والعمل بـه . اذ الاســـلام دين خلق وعمل لا كتاب لهو وجدل .

٣ - الفتوى الترنســـفالية وهي ذات ثلاث شـــعب :

ا - لبس البرانيـط

ب - اكل ذبائح اهل الكتاب

ج - اقتداء الشـافعية بالحنفيـة

افتى بجواز الاولى محمد رشـيد رضا (١) ولســـنا هنا في صدد تقدير فتواه . وافتى محمد عبده بجواز الاخريـن (٢) .

اما الفتوى الثالثة فلا غبار عليها . والثانية تتعارض مع الكتاب في امور :

١ - اشـــترط الكتاب التســـمية على الذبيحة (٣) .

٢ - اشـــترط خروج دمها (٤)

فاذا توافر الشـــرطان جاز الطعام للمســـلم والا بطل الجواز . ويظهر ان محمد عبده اجاز الاكل بصرف النظر عن الشـــرط الاول مســـتدلا بالآيـة " اليوم احل لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم اذا اتيتموهـن اجورهـن محصنين غير مســـافحين ولا متخذى اخدان ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الآخـرة من الخاســـرين (٥) " .

على ان الآيـة تشـــير في مســـتهلها الى حل ما طاب من الطعام وفي ذلك تذكرة بضرورة التســـمية وخروج الدم اللذين تطهر بهما الذبيحة وانما الذى احل مجددا هـو الطعام عند اهل الكتاب وليس في هذا نقض لما احكمه الكتاب في آيات ســـابقة وســـطح في ترك احكامه . واذا كانت الآيـة تشـــريعا للمســـلم وهي تحل طعامه مجددا لاهل الكتاب

---

١) رضا ج ١ ص ٦٧٥
٢) رضا ج ١ ص ٦٧٦
٣) القرآن الكريم ٥ / ٤ و ٦ / ١٨ / ١٢١
٤) القرآن الكريم ٥/ ٤
٥) القرآن الكريم ٥/ ٥

ففي ذلك دليل على انها انما تحل طعام اهل الكتاب عنده لأن طعامه لم يكن من قبيل محرما في ذاته . فالتشريع للمخالطة وبؤكد ذلك تحليل الزواج بالكتابيات . وانما ذكرت الآية المؤمنات والكتابيات ثم قيدت الزواج بهن بنفس الشروط من ايتاء الأجور والحصانة وترك السفاح واتخاذ الاخدان اشارة الى ان الطعام عند اهل الكتاب مشروط بنفس الطعام عند المسلمين اى بالتسمية والذبح .

ولقد شرعت المخالطة بعد ان كانت غير مشروعه بل محظورة وذلك لأن الاسلام قويت شوكته وصار التيار الجارف في مجراه فلم يعد يخشى على المؤمن الضعيف ان يتحول عن ايمانه بل فتح له السبيل لبث دعوته . ومع ذلك كله نصبت الآية في ختامها علم الترهيب والتخويف من التساهل في الايمان ليبقى المؤمن في حرز الحذر .

٤ — تحليل ايداع الاموال في صندوق التوفير ، واخذ الفائدة عليه (١) .

لم يصلنا تفاصيل هذا الصندوق ولا شروط ايداع المال فيه او كيفية تصرفه بهذه الأموال ولذلك فلا يمكن البحث في تقدير فتوى الشيخ عبده .

٤ — في اصلاح المحاكم الشرعية

كان اول عمل عهدت به اليه الحكومة بعد ان صار مفتيا للديار المصرية تفتيش المحاكم الشرعية وبيان رأيه في النواحي التي يجب اصلاحها . وذلك لكثرة الشكوى من خللها حتى ان بعض الباحثين ارتأى وجوب الغائها ونيابة المحاكم الاهلية عنها (٢) .

اكد الشيخ عبده ضرورة المحاكم الشرعية وبين وظائفها في حفظ الألفة ورد ها الى الاسر المنكوبة في وفائها في مقال له بعنوان " الحاجة الى المحاكم الشرعية " (٣) .

---

١) آدمز ص ٧٦

٢) رضا ج ١ ص ٦٠٥ ، لم يشر رضا الى هؤلاء الباحثين

٣) رضا ج ١ ص ٦٠٨

ويمثل قوله التالي خلاصة رأيه في هذا الموضوع . يقول :

" اذا ظهرت هذه المحاكم في مظهرها الديني الجليل ، وسارت سيرتها الشرعية القويمة ، ادخلت اصول النظام في اصغر البيوت فضلا عن اعلاها ، واعادت بالعدالة الابوية ما فقده الناس من نظام الالفة ، وقد رأينا ان الرجل يدخل المحاكم الاهلية مخاصما ، فيخرج منها محاميا ، فأحر بمن يقوم بين يدى قاض ينطق بالعدل الالهي ان ينقلب وفي نفسه اثر من خشية الله "(١) .

ويستعمل هنا صاحبنا اسلوب الايحاء في ختام قوله هذا ليؤكد ضرورة المحاكم الشرعية . على انني لا ارى ان الظالم ، اذا نطق العدل الالهي بادانته ، ينقلب خاشعا . فقد قصر القرآن ذلك على العلماء " انما يخشى الله من عباده العلماء "(٢) .

والبرهان على ضرورة المحاكم انها يقوم بها يعرف الناس حقيقة الشرع الاسلامي من جهة ويقوم قضاة مؤمنون حقا يحكمون بالشرع لا بما يحرفونه او يظنون انه شرع . وقد وضع الشيخ عبده على اثر قيامه بتفتيش دقيق لاكثر محاكم الوجه البحرى تقريره في اصلاحها . وشمل التقرير ثلاثين بندا(٣) ، الا بندا واحدا لا تصلح المحاكم الشرعية ولا الامة الاسلامية كلها الا به وهو الايمان الصحيح ووعدنا الفصل الاتي لبيان ذلك .

---

١) رضا ج ١ ص ٦٠٩

٢) القرآن الكريم ٣٥/٢٨

٣) انظر رضا ج ١ ص ٦٠٦ ، المنار م ٢ (١٨٩٩) ص ٥٧٧ وما بعدها ؛
المصدر نفسه ص ٥٩٣ وما بعدها ؛
المصدر نفسه ص ٦٠٩ وما بعدها ؛
المصدر نفسه ص ٦٢٥ وما بعدها .

الفصل الخامس

دراسة نقدية

اريد في هذا الفصل الاخير تقدير حركة الشيخ عبده من وجهة واحدة هي وجهة الاسلام .

ظهر الشيخ محمد عبده على مسرح الاصلاح والامم الاسلامية في غاية الانحلال ان جمعتها الفاظ وطقوس جمعا ظاهريا مصطنعا باعدت بين افرادها العيول والنزعات . كان السير الديني بمقتضى التقليد قد استحكم في المسلمين منذ الف سنة . فبعدوا بذلك عن المصادر الدينية الاولى . واصبح تراث الاسلام المتحدر اليهم مزيجا من نتاج الفكر الاسلامي وخرافات الاغبياء في الدين . فما كان من اعمال او افكار جيدا محمودا لم يكن معقولا ولا مفهوما ، وما كان بالتالي ليزكي النفوس ولا ليغذي العقول ولا ليوحد المسلمين ويجمعهم على الفضيلة ، وما كان سيئا لم يكن ليزيدهم الا انحلالا وانهيارا .

هذا هو باطن الحياة الاسلامية يوم تكشفت في نفسية محمد عبده نوازع الاصلاح وحركته عاطفته الدينية لينهض بالمسلمين ويرفع راية الاسلام .

ولكن مهمة الاصلاح كانت ثقيلة بقدر ما كانت العيوب الاجتماعية عامة عميقة . طلع الغرب على الشرق بعلمه وقوته وضغط عليه سياسيا وادبيا فكانت الاستجابة [illegible] لدى مفكري الاسلام محاولة ربط الامم الاسلامية بعروة [illegible] ونقى وتوحيدها في فكرة واحدة هي الدفاع عن الدين . ولكن الشيخ محمد عبده كان يقول بضرورة التوحيد الفكري اولا ، كما رأينا ، ثم الوصول الطبيعي الى الوحدة السياسية . يقول :

" اما امر الحكومة والحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لانني قد عرفت انه ثمرة تجنيها الامم من غراس تغرسه وتقوم على تنميته السنين

الطوال فهذا الغراس هو الذي ينبغي ان يعنى به الآن والله المستعان (١) .

يدل هذا القول على نظرة صحيحة في ارتباط النهوض السياسي بالاصلاح الداخلي ولكن ما طبيعة هذا الاصلاح وما طريقه ؟

يرى الشيخ عبده ، كما المعنا في الفصول السابقة ، ان تحرير الفكر من قيود التقليد هو الخطوة الاولى في كل اصلاح لانه يفك العقول من قيودها ويطلقها من رقها الى حرية الاستقلال في الفهم . وبذلك انما يمكن بناء نهضة عقلية تضيء السبيل امام الامة . وهو في هذا متأثر بكتاب كيزو (٢) الذي امتدحه واحاطه بالثناء العظيم . ويجد الشيخ عبده ان القرآن هدم التقليد وقوض اركانه . لذلك كان الهدم من اركان حركته الاصلاحية فقد اطن حربا حامية الوطيس على المقلدين ما الب عليه الدوائر المحافظة .

وقف الشيخ عبده عند كل آية من آيات القرآن تدعو الى التفكير والعقل ونادى منها جميع المسلمين ان افيقوا وتفكروا . وتميزت دعوته بهدم التقليد وبناء العقل .

كانت عناصر حركته مستمدة من ينابيع متباينة ولكن يد التوفيق والتأليف بينها كانت ظاهرة الاثر . تحدر الى عقلية الشيخ عبده افكار من مصادر شتى بعضها الدين وبعضها من اثار علوم الغرب ومدنياته فحاول هضمها جميعها واخراجها الى الناس بثوب جديد .

فجاءت شخصيته قوية ولكنها معقدة (٣) كما يقول عثمان امين . ولا غرابة في هذا التعقيد فهو ثمرة المزج بين اتجاهات متضاربة كما سنرى بعد قليل .

كان لمحمد عبده شخصيتان . الاولى مؤمنة بالدين وصلاحيته لكل امة في كل عصر ، والثانية معجبة بتفوق اوروبا ومدنيتها ومؤمنة بضرورة الاخذ عنها ومتابعة

---

١) رضا ج ١ ص ١٢
٢) رضا ج ١ ص ١٣٥ ؛ رضا ج ٢ ص ٤٦
٣) عثمان امين ص ١٣٤

طريقها في طلب العلوم العصرية واللحاق بها في مجاري الاصلاح . وهو صادق في شخصيته ومن هنا صدرت ، في ما اري ، عوامل الاخفاق التي شلّت حيوية حركته . وقد اضطره هذا الايمان المزدوج الى بهلوانية فكرية في مواقف عدّة في حياته قيدت قوى دعوته واضعفت انصاره وقللت اتباعه .

ان مدرسة محمد عبده كانت ، كما قال اللورد كرومر (١) ، جد ملوّثة بريبة الهرطقة . فهم لذلك لم يستطيعوا ان يحركوا معهم الدوائر المحافظة . وكانوا من الجهة الثانية لم يأخذوا من الثقافة الاوروبية ما يكفي لاجتذابهم العناصر العصرية المتفرنجة . فهم " وسط بين طرفين ، وغرض انتقاد الفريقين عن الجانبين " (٢) .

فكان عطفهم اذا صعبا للغاية (٣) . على ان اللورد كرومر يتوقع من هذه المدرسة واتباعها خدمة وطنية تكون في صالح الوطنيين المصريين " وتمكنهم بالتدريج من تنفيذ برنامجهم في خلق مصر الحاكمة لنفسها حقاً " (٤) . ويظهر ان هذا العميد البريطاني يعجبه في الشيخ عبده وطنيته المصرية (٥) . اما قضية اصلاح الاسلام فما لا يؤمن به . يقول : " اننا عند التصدي لادخال المدنية الاوروبية الى مصر يجب الا ننسى ابدا ان الاسلام لا يمكن اصلاحه ، بمعنى ان الاسلام اذ تعمل فيه يد الاصلاح لا يبقى اسلاما بل يصبح شيئا آخر " (٦) .

ومهما يكن من امر فان اخلاص الشيخ عبده للاسلام هو الحافز الاكبر الذي دفعه الى الاصلاح (٧) . ولكن الوسائل التي اقتنع بضرورة الاخذ بها لرفع الاسلام كانت جديدة من نعوات تفكيره وتأثره بتيارات الفكر الحديث . ان اتصاله بالمدنية الحديثة

---

١) مصر الحديثة ج ٢ ص ١٨٠
٢) رضا ج ٣ ص ٤٢٦ ، من تأبين اللورد كرومر لمحمد عبده
٣) مصر الحديثة ج ٢ ص ١٨٠
٤) المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها
٥) المصدر ذاته ص ١٧٩
٦) المصدر ذاته ص ٢٢٨ — ٢٢٩
٧) آدمز ص ٩١

اضاف الى عقيدته الاسلامية شيئا جديدا ولكنه لم يقو على محوها . يرجع ذلك ، في ما ارى ، الى السنوات السبع الأولى من حياته الازهرية التي قضاها في سلوك الطريق الروحي على يد الشيخ خضر الصوفي . فذلك اكسبه تذوقا للحقيقة الدينية ثبت قلبه عن التحول فيما بعد . ولكن ضحالته في المعرفة الصوفية لم تمكنه من الكشف عن قوى المبادئ الاسلامية والغوص على معاني الدين الروحية فظل فكره في ظل الى الادلة العقلية والبراهين المنطقية ، والازهر خاو على عروشه . فبقي محمد عبده في الحيرة الفكرية لا تدعم كتب الازهر اسلامه لانها تفترض على المسلمين التقليد . غير ان وجدانه راغب عن الاسلام لما يتذوق من خيراته الروحية وان كان لا يرى في تراثه الا تضاربا .

في هذه الفترة وصل جمال الدين الى القاهرة . وكان هذا الشيخ الافغاني قوي الذهن مستقر القلب على اتجاهات فكرية معينه هي انهاض الامم الاسلامية وتوحيدها لرد العدوان الاوروبي . ولكن قوة تأثيره في الأرواح كانت بالغة . فهو يقوى على الاقناع من غير منطق . فاثر في نفسية محمد عبده المضطربة وثبت خطواتها في طريق الحرية الفكرية . ولكن كان لهذا الاتصال بي ما ارى ، منافع ومضار . انتفع الشاب عبده من الاستاذ الجديد باكتسابه وجهة الطموح والاصلاح . اما اذيته ففي تحويل المريد عن الطريق الروحي والقاء المتناقضات عليه . وبذلك تعقدت شخصيته وانشطرت مساعية في اتجاهات عديدة . اوحى اليه جمال الدين بسمو اوروبة وتقدمها وارتقائها (١) . ولكنه في الوقت نفسه كان يقول بوحشية المدنية . اكد له ضرورة الاسلام للنهوض والاخذ بالقرآن اذ فيه كل شفاء (٢) . ولكن ارشد المريد الى كتاب كيزو في تاريخ التمدن الاوربي فعلق عليه الدبيع الطويل ونال منه

---

١) المخزومي ص ١٤٩

٢) المخزومي ص ٨٨

الاعجاب الكثير[1] . جعل الدين رابطة وعروة وثقى بين المسلمين ولكنه قال بالرابطة الوطنية الوثيقة من جهة اخرى[2] .

هذه العناصر الفكرية الحضارية ادت الى اضطرار الشيخ محمد عبده فيما بعد لاصطناع ضروب اللف والدوران وارتداء ثوب الحيطة لنشر افكاره وشق الطريق لها في العقول .

وهكذا تحول مجرى شخصية العبد ولكنه ظل متمسكا بحبل من حبال الاسلام ، لم يفلته من يده الى آخر حياته . فنفعه تصوفه الاول في رسم الحدود لحريته وامده اتصاله باستاذه الثاني بقوة الانطلاق ضمن هذه الحدود .

جاءت حركة الشيخ عبده في كثير من نواحيها تقريبا للاسلام من العقلية الحديثة وتحويلا لانظار الناشئة عن مساوئ الشيوخ الجامدين وصرفا لهم عن اوهامهم في الدين الى حسنات الاسلام الصحيح .

وبامكاني ان اصور مناقب الشيخ محمد عبده وخدماته للاسلام في ما يلي :

١ — كان قوي الفكر شديد الشكيمة في الدفاع عن الاسلام
٢ — ثبت العقيدة بدعمها بالادلة العقلية
٣ — ادرك ضرر التقليد الاعمى فشن عليه الغاره
٤ — ازال شبه بعض المفسرين للقرآن
٥ — اذاع شهرة الاسلام في العصر الحديث
٦ — عطل على نصرته باصلاح الفكر واللسان والمجتمع المصري
٧ — كان نشيطا ذا عزيمة لا تعرف الوهن في حدود امكانياته
٨ — كان مستقل الارادة صادق الايمان في حدود مواهبه

---

١) رضا ج ٢ ص ٤٦
٢) المخزومي ص ١٤٤ — ١٤٥

٩ — ابرز ما فيه ثقته واعتماده على الفكر .

١٠ — كان جريئا ذا شجاعة ادبية .

على ان ذلك كله لم يمكنه من اصلاح المسلمين لان بناء امة اسلامية لا يكون بساعد الفكر فحسب . وان اصلاحا فكريا للعقيدة لا يكفي لاعادة الوحدة الى الشعوب الاسلامية الممزقة . كانت حركته ناقصة لم تتوافر فيها عناصر الاصلاح الديني . وهذا احد الاسباب العاطلة على شل حيويتها .

صحيح ان التحرر الفكري جوهري في دعوة الاسلام ولكنه نقطة انطلاق وبداية لا غير . بالغ الشيخ عبده في اعتماده على الفكر واسرف في حصر العقل في عطياته فغاب عنه روح الدعوة الاسلامية واصطبغت مفاهيم الدين في نظره بصبغة الفكر فحجبت عنه اضواؤها الاخرى وسدت امامه ينابيع القوة الكامنة في ارجائها .

رفع محمد نبي الاسلام بمعاني القرآن الروحية امة الى الفضيلة والعز لانه ادرك مكانة الاخلاق في حياة الهيئة الاجتماعية وعرف منهل الاخلاق الفاضلة فدل قومه عليه وسقاهم منه شرابا طهورا . فطهرت نفوسهم من عوامل الفساد الاجتماعي الذي يعوق قيام الامة او يقضي عليها حين يدب فيها .

عرف محمد كيف يهدي بالقرآن الى القرآن فنال اتباعه نصيبا من المثل العليا التي يشير اليها القرآن . ولم يدر الشيخ عبده كيف يأخذ القرآن وكيف يدل به عليه فظلت كمالات الاسلام في نفوس تلاميذه افكارا يشيرون اليها دون ان يتمكنوا من امتصاصها ويقووا على التأثير بها في الارواح وربط قلوب افراد الامة بعروة وثقى وجمعهم على فكرة واحدة وعاطفة واحدة وقبلة واحدة .

اثرت فيهم طبيعة العصر اكثر من اللازم وضعفت مدرسته عن ان تشق طريقا للاسلام كما شقته الصحابة . فظلوا في عالم الفكر ولم يخرجوا الى حيز الروح . يعود ذلك من بعض الوجوه الى التواء التوجيه الذي نهجه الشيخ محمد عبده .

وفي ما يلي عرض لبعض مفاهيم الاســـــلام الاســـاســـية واظهار لمناحي الضعف في فهم الشيخ عبده لها .

١ ـ الايمان :

ظل الشـــيخ عبده في توجيه الناس الى الايمان يضع النبرة على العامل العقلي فحســـب (١) . فالايمان عنده هو اســـتدلال على الله بآثاره (٢) ، وعلى النبي بقرائنه .

فهو في جوهره قناعة فكرية بوجود الخالق ورســـالة محمد . ولكن الى اى حد تستطيع متانة هذه القناعة ان تقف في وجه روح العصر وتكافح امواج الالحاد وتنســـج اللحمة بين الافراد لتنشـــيء بهم امة اســـلامية ناهضة .

ان محمدا مؤســـس الاســـلام لم ير ، في ما يظهر لي ، كفاية هذا الايمان الصـــوري في بناء صرح الامة . بل توســـل به الى ايمان اقوى يحط في ثناياه مناعة اليقين الذى لا يتزلزل . ذلك هو ايمان القلب . والقلب في القرآن محط الرحال ونواة الفضيلة . اذا صلح صلح الجســـد كله واذا فســـد فســـد الجســـد كله (٣) . وهو مهبط الهدى " ومن يؤمن بالله يهد قلبه (٤) " وباعث الضلالة " فانها لا تعمى الابصـــار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور (٥) " واذا كانت قوة القناعة الفكرية قد تتهافت اذا واجهتها قوة الحاد اكبر منها فان يقين القلوب منيع لا تضعضعه عواصف الفكر ولا تغريه شهوات الدهـــر .

وقد حدثنا القرآن عن اناس آمنوا ثم كفروا (٦) . هؤلاء آمنوا بالفكر ولم يدرك ايمانهم قلوبهم . ولم يقوا اســـتدلالهم بالاثـــار على تثبيتهم في الدين . اما اهل القلوب الذين

---

١) انظر ص ٢٨ من هذا البحث
٢) انظر ص ٢٩ " " "
٣) الزبيدى ص ١٣ ، النووى ص ٣١
٤) القرآن الكريم ١١/٦٤
٥) " " ٤٦/٢٢
٦) " " ٣/٦٢

هداهم الله بنوره الى الحق فعرفوه وأحبوه واتخذوه دينا فاولئك لن تقوى على تحويلهم ضلالة " ومن يهد الله فما له من مضل "[1] .

ان ايمان الفكر قد ترافقه اعمال الفضيلة التي يأمر بها وقد لا ترافقه . والعلم بالشيء نظريا ، لا يقتضي العمل به . ولكن ايمان القلب يستتبع حتما صالح العمل وفاضل السلوك لا لانه قيد قاهر ولكن لما ينطوي فيه من ايقان بالخير يملأ النفس حبا بما ينفع الناس .

اشار محمد الى هذا الايمان الوجداني بقوله : " لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به "[2] .

٢ - التأويل :

بينما كان الشيخ عبده ينصر العقل ويدعو اليه ويجعله حكما في فهم الدين[3] ويمنحه حق التأويل لما اشتبه عليه من نصوصه وفق القانون اللغوي[4] كان القرآن في الوقت نفسه يؤكد غير هذه الاحكام .

فاتباع ما تشابه من آيات الكتاب هو ظاهرة وعلامة على زيغ القلوب عن الحق . يدل على ذلك الآية التالية " هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولوا الالباب "[5] .

وفي السنة تأكيد على وجوب الحذر من اتباع المتشابه . جاء في حديث عائشة " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فاولئك الذين سمى الله فاحذروهم "[6] .

---

١) القرآن الكريم ٣٩/٣٧
٢) النووي ص ١٠٨
٣) انظر ص ٢٩ من هذا البحث
٤) " " ٣٠ " "
٥) القرآن الكريم ٣/٧
٦) الزبيدي ص ١٠٠

وبديهي ان الانصراف عن المحكمات من ايات الكتاب ، وهي الامّ الجامعة لاصول الخير الاجتماعي والفردى والقواعد العامة لنظام العدالة الاجتماعية ، الى الخبط في ما لا يصل الفكر اليه بالبحث المستقل هو اوضح اية لزيغ الشخصية عن طريق الهدى .

ونجد في موضع آخر ما يدل على ان فهم الدين لا يكون بالفكر المستقل وانما يحتاج الى هدى وارشاد . يقول القرآن : " هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق "(١) . وفي هذا اشارة الى السنة الطبيعية لفهم القرآن .

وليس في هذا غرابة فان كل فكرة يتطلب فهمها نموا معينا يمكن من السمو الى مستواها . ولا ضاع خيرها بين اناس لا يفهمونها . واذا عرضوا لها تاولوها بحكم واقعهم العقلي ومستواهم الفكرى الى معنى من عندهم تراءى لهم في افق تفكيرهم فظنوه هو مؤداها حدسا لا يقينا .

واكد القرآن بصورة قاطعة على ان فهم معانيه السامية لا يكون الا بوصول النفس الى الطهر الروحي والا ظل كتابا مكنونا لا تدرك اسراره ولا تعقل اهدافه .

" انه لقرآن كريم . في كتاب مكنون . لا يمسه الا المطهرون . تنزيل من رب العالمين "(٢) .

وفي هذا ما يشير الى ان تساءي الروح شرط لفهم ما اودع في الدين من حقائق وادراك ما في شرائعه من خير البشر .

فالعقل واللغة لا يكفيان اذا في فهم القرآن وهذه هي نقطة الدفع في تعاليم الشيخ محمد عبده . ولا بد من تزكية روحية تسبق التصدى للنظر في اصول الاسلام .

لذلك بدأ النبي بتزكية الروح توسلا الى نشر ذخائر العلم والحكمة .

---

١) القرآن الكريم ٦١ / ٩

٢) " " ٥٦ / ٨٠

يقول القرآن واصفا سيرته في اصحابه : " هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين " (١) .

هذه التزكية الوجدانية هي الوسيلة الوحيدة لعقل ما في الكتاب لأنها تنهض بالنفس الى مستوى المعاني . والعقل وحده هو ناشر الخبرة وفهم القرآن ثمرة للعمل به . هنالك تنكشف للعقل بعد سموه معاني المتشابهات وتأويلها الصحيح المراد منها . وهكذا نجد ان منزلة التزكية في الدين منزلة القلب ونصيبها في الاصلاح الديني نصيب الأسد .

هذه التزكية معطلة في قائمة الشيخ عبده ولم يكن ايمانه باستحالة غيرها قاطعا في ميدان الاصلاح بل كان يرى في تحرير العقل غنية عنها فالعقل في نظره كاف للتفريق بين الحق والباطل (٢) ولما بدت له طلائع اليأس من اصلاح الازهر بدأت تخامره فكرة ارشاد طائفة من المستعدين على طريقة الصوفية (٣) . ولو لجأ لهذا الطريق من قبل لأمكن في ما اري ان يكون لعطه ثمرات اغنى بالحياة الناهضة مما كان . ولخلص من ثنائية العقل والنقل ولأصبح النص اشارة الى ما في العقل ، وعبارة تصور ما انطوى فيه من قبل . وانهى هذا البحث بالآيات التالية : " انما يتذكر اولوا الالباب " (٤) " وما يتذكر الا من ينيب " (٥) للدلالة على ان ما في القرآن انما هو ذكرى لمن عرف الحق سابقا ومفهوم التذكر من اصله ينم عن استرجاع ما سبقت معرفته .

الشفاعة . —

لما انحط الوجدان الاسلامي وانحلت فيه معاني الكمال الخلقي اخذ الفكر يدرك من هذا المفهوم معنى مشتقا من الخبرة الاجتماعية الفاسدة وقد حارب الشيخ عبده ذلك المعنى وسعى في ابطاله ولكنه لم يذكر لنا المعنى المراد من اللفظ الديني معللا انه من المتشابه في الكتاب (٦) .

---

١) القرآن الكريم ٢/٦٢
٢) تفسير القرآن الحكيم ج ٣ ص ١٦٠
٣) رضا ج ١ ص ٤٢٦
٤) القرآن الكريم ٢١/١٣ و ٩/٣٩
٥) " " ١٣/٤٠
٦) انظر ص ٣٥ من هذا البحث

وقد ظن الشيخ ان الشفاعة انما تكون في الآخرة فحسب ومن هنا وجد ان شفاعة محمد للمجرمين تمس العدالة الالهية . في حين ان القرآن يثبت ان الشفاعة في احد معانيها تحصل في الحياة الدنيا . ففي الآيه :

" من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها " (١) اشارة الى حادثة من حوادث الحياة الاجتماعية .

وفكرة الشفاعة في اللغة تنم عن معنى الانضمام والازدواج . وقد قابل القرآن في احدى آياته بين " الشفع والوتر " (٢) . ويقال : شفعت العمل بالاخلاص اى قرنته ووصلته . وعلى هذا يمكن ايضاح معنى شفاعة النبي بانها ذلك الاتصال الحادث بين نفسه ونفس المشفوع له عند المشفوع عنده وهو الله مما يؤدى الى سريان المعاني من قلب الى قلب ومن عقل الى عقل . هذه الشفاعة لا تحدث ، في ما ينص القرآن ، الا لمن ارتضاه الله اى لمن حسن عمله واستعد باستفاضة سيرته لامكانية الفهم . اما الذين يطغون فان نفوسهم تنقل باثقال الاثم والشهوة عن النهوض الى المعاني الكريمة او الاتصال بالنفوس النقية الشافعة عند الله .

وكما تكون الشفاعة في الخير بين نبي او ولي وبين سالك جديد كذلك تكون في الشر بين مجرم خبير باساليب الاجرام وطرق الشرور الاجتماعية وبين مبتدىء في طريق الفساد . وكما تكون في التعاون على الخير تكون في التعاون على العدوان والدنيا طافحة بامثلة تاريخيه لذلك . فمن يشفع شفاعة حسنه ويدل على خير ويعين على حق يعد ذلك عليه خيرا ويكن له نصيب من شفاعته ومن يشفع شفاعة سوء ويدل على اذى ويعين على باطل يرجع ذلك في المستقبل اليه ويصيبه رشاش من عاقبة فعله .

اما من جهة القوة الناجمة عن حقيقة الاستشفاع بنفس النبي فان ارتباط النفوس جميعا بنفس واحدة وانضمامها اليها واجتماعها بها على الله مما يؤدى الى احياء الوحدة

---

١) القرآن الكريم ٤/٨٤

٢) " " ٨٩/٣

الروحية والفكرية ، تلك الوحدة التي هي مقوم الامّة وجوهر حياتها .اما ذهب اليه محمد عبده من ان الشفاعة تسعى لتغيير ارادة المشفوع عنده فهو من انعكاسات الانحلال الوجداني في مجتمعه والمجتمعات الاسلامية السابقة . كما ان الحل الذي اختاره لمفهوم الشفاعة بان يجعل الله عفوه عمن يريد رحمته يوم القيامة بواسطة تدخل رسوله فهو حل لا ينهض وسمو المعاني القرآنيه ولا يلائم العداله الالهيه .

الوسيله . -

سرى فساد الخبرة الاجتماعية الى هذا المفهوم ايضا وانعكس التوسل الاجتماعي على ادراك اللفظ الديني فآل ذلك الى انحلال التوحيد في النفوس . وهنا ايضا نجد الشيخ عبده (١) اشد اصرارا على انكار التوسل بالانبياء والاولياء في الحياة الدينية . وكان في ذلك متأثرا بابن تيميه وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب . فهؤلاء حاربوا التوسل وعدوه شركا ظاهرا والحق ان لهذا المعنى القرآني صلة وثيقة بمعنى الشفاعة . ففي الآيه : " يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة " (٢) شرع ثابت للتوسل . ولكن الوهابية تذهب الى ان التوسل انما يكون بطلب القربة الى الله عن طريق العمل الصالح وعنه فقط . في حين ان الكتاب يعين هذه الوسيله في آية اخرى ويحددها في القربين الى الله لا في العمل الصالح . تقول الآيه :

" قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . اولئك (٣) الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيله ايهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه " .

وليس في هذا التوسل شرك لانه في جوهره اتصال بالنفوس العاليه واستشفاع بها لينال البعيد قربا بصلتها . وهو توسل لا شرك فيه لانه مقرون بعقيدة التوحيد ورجاء رحمة الله وحده ومخافة عدله وحده . واذا كان هذا التوسل امرا الهيا ففيه فائدة خير .

---

١) انظر ص ٣٢ من هذا البحث
٢) القرآن الكريم ٥/٣٨
٣) " " ١٧/٥٧

وينبغي ان يصحح المفهوم الفاسد لا ان يبطل ما شرعه الاصل الثابت . ولكل غاية وسيلة .

اما ما ذهب اليه محمد عبده من الاستشهاد بسورة الفاتحه الناطقة بقصر الاستعانة على الله فان الآيه تقول : " واياك نستعين " ولم تقل "واياك استعين " وصيغة الجمع تدل على مطالبة المؤمن بالاستعانة بالله وهو مستشفع برسوله متوسل به ومتخذه اماما لاتصاله بربه . وليس في هذا الاصطحاب الروحي والتعاون النفسي اى خادش لحقيقة التوحيد . فالتوحيد نفسه جعل محمدا سراجا يضيء للسالكين طريقهم الى الله .

تدل على ذلك الآيه : " يا ايها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا "(١) .

الاصلاح والمشكلة الاخلاقية . -

لقد ذهب الشيخ عبده الى اصلاح العقلية ووقف معظم جهوده عليه . في حين ان الاصلاح الصحيح ، في ما ارى ، لا يكون الا باصلاح الاخلاق الانسانية . لانه في جوهره انتقال بالناس الى الحياة الصالحة السعيدة . ولا تكون تلك السعادة ممكنه في هذه الحياة الدنيا الا بالدين في مفهومه الاصيل قبل ان تنعكس عليه مفاسد الحياة الاجتماعية المنحلة . فركن الحياة الصالحة مزدوج . هو من جهة بناء للعلاقات الاجتماعية على اسس صحيحة عادلة ومن جهة اخرى ايصال الافراد الى النمو الروحي والارتقاء الخلقي اللذين يمسكانهم باهداب الفضائل العداله ويحببان اليهم الخير الاجتماعي العام ويقيانهم نزوات نفوسهم وجنوحها للاستعلاء والطغيان . وما ظهور التفاوت الطبقي في جميع اشكاله ومن شتى نواحيه على توالي العصور الا نتيجة لامراض النفوس . فاصلاح الاخلاق اذا هو روح السعادة وجوهرها المقوم في كل زمان ومكان .

---

١) القرآن الكريم ٣٣/٤٦

وهكذا فان الاسلام جاء شرعا لبناء العلاقات على اصول العدل والاحسان والمرحمة وشرعا لايصال الروح الى ربها كي تشفى بمعرفته من كل جهاله وتسمو ميولها ويصبح الحق في نظرها هواية . فتحيا في مدنية الروح لا تكدرها ظلامات الحقوق المادية . بل حياة يشيع فيها السلام في الباطن والظاهر والروح والجسد والعزلة والاجتماع .

وما على المجددين للاسلام على تعاقب القرون الا ايصال النفوس الى الله الذى يزكيها ويكب فيها محبة الحق والاحسان وعواطف الشفقة والمرحمه ويهد بها بعلم لدني الى حياة السلام وينقلب عيشها الاجتماعي سكينه وسلط . تشير الى ذلك الآية التالية : " تحيتهم يوم يلقونه سلام "(١) وما وظيفة الانبياء والمرشدين الا تمهيد هذا اللقاء للذين يطلبونه واما الاصلاح فيعجز عنه البشر وهو من عمل الله وحده " واصلح بالهم "(٢) .

وكلما رتق المصلحون الانسانيون عيبا اجتماعيا فتقت عيوب وما تزال المدنيات تلقى العوائق حتى تؤول الى خراب . اما اصلاح الدين الصحيح الذى يتولاه منزل الاديان وينعم به على الراجعين اليه فهو ازالة لجرثومة الفساد من القلب الانساني ومحوه واثبات جرثومة الفضيلة مكانه . وبهذا المعنى تخلى محمد عن زعم الارشاد لنفسه واثبته لمن يملكه . يصفه القرآن في ذلك بالآية : " قل اني لا املك لكم ضرا ولا رشدا "(٣) . وليس للانسان امكانية كشف الضر عن احد ولا ارشاده الفعلي لان ذلك يحتاج الى قوة تنفذ الى بناء العقل فتصلح اعوجاجه والى يد تصل الى القلب فتزكي ميوله وتخلق فيه الرحمة والعدالة والاحسان وتغرس فيه ساعي العواطف .

---

١) القرآن الكريم ٣٣/٤٤

٢) " " ٤٧/٢ و ٥ ، ٣٣/٧١

٣) " " ٧٢/٢١

وكل اصلاح للدين لا يؤدى الى وصل النفوس بخالقها يظل سرابا لا يزيد الناس الا تعصبا وانقساما فكريا وخلقيا ذريعا .

هذا هو التجديد الذى اشار اليه النبي . وليس هو بإدخال علوم عصريه ولا رتقا لنواحي الفساد الظاهرة مع بقاء القلب مريضا وهو نافذة المظالم كلها .

. . . . .

اننا اذا نظرنا الى الشيخ عبده من خلال هذا الاسلام وجدنا حركته لم تتخط عتبة الاصلاح ولم تقو على وضع القدم الثانية في خطوات التجديد فكيف الاقدام الاخيرة ؟!

المصادر والمراجع

١ ـ بالعربية :

١ ـ القرآن الكريم

مصنفات الشيخ عبده :

٢ ـ " الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية " مصر ١٣٦٧ هـ

٣ ـ " تاريخ الاستاذ الامام " الجزء الثاني (الطبعة الأولى) مصر ١٣٢٤هـ

٤ ـ " تاريخ الاستاذ الامام " الجزء الثاني (الطبعة الثانية) مصر ١٣٤٤ هـ

٥ ـ " تفسير القرآن الحكيم " مصر١٣٢٤ـ١٣٤٦هـ

٦ ـ " تفسير القرآن الكريم " ـ جزء عم مصر ١٣٤١هـ

٧ ـ " رسالة التوحيد " مصر ١٣٦١هـ

٨ ـ " العروة الوثقى " (لجمال الدين ومحمد عبده) بيروت ١٩٣٣م

ما كتب عن الشيخ عبده :

٩ ـ " آدمس ، شارلز (نقله عباس محمود)
" الاسلام والتجديد في مصر " مصر ١٩٣٥م

١٠ ـ الافغاني ، جمال الدين (نقله محمد عبده)
" الرد على الدهريين "

١١ ـ امين ، احمد
" زعماء الاصلاح في العصر الحديث " مصر ١٩٤٨م

١٢ ـ امين ، عثمان
" محمد عبده " مصر ١٩٤٤م

١٣ ـ جب ، هـ ١٠ ر . ورفاقه (نقله محمد عبد الهادي ابو ريده)
" وجهة الاسلام " مصر ١٩٣٤ م

١٤ ـ حماده ، عبد المنعم

" الاستاذ الامام محمد عبده " مصر ١٩٤٥م

١٥ ـ الرافعي ، عبد الرحمن

" عصر اسماعيل " الجزء الأول مصر ١٩٣٢م

١٦ ـ رجب ، منصور علي

" الازهر بين الماضي والحاضر " مصر ١٩٤٦م

١٧ ـ رضا ، محمد رشيد

" تاريخ الاستاذ الامام " الجزء الأول مصر ١٣٥٠هـ

١٨ ـ رضا ، محمد رشيد

" تاريخ الاستاذ الامام" الجزء الثالث مصر ١٣٦٧هـ

١٩ ـ رضا ، محمد رشيد

" تفسير الفاتحه و ٦ سور من خواتيم القرآن " مصر ١٣٥٣ هـ

٢٠ ـ رضا ، محمد رشيد

" مجلة المنار " المجلدات : ٢ ـ ٤ ـ ٨ ـ ١٢ ـ ٣٣

٢١ ـ رفعت ، محمد

" تاريخ مصر السياسي في الازمنه الحديثة " مصر ١٩٤٣م

٢٢ ـ الزبيدى ، ابو العباس احمد بن احمد

" التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح " مصر ١٩٢٨م

٢٣ — زيدان ، جورجي
" مجلة الهلال " المجلد الثالث عشر مصر ١٩٠٥م

٢٤ — زيدان ، جورجي
" تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر " مصر ١٩٢٢م

٢٥ — شفيق باشا ، الحاج احمد
" مذكراتي في نصف قرن " الجزء ٢ القسم الاول مصر ١٨٩٢ — ١٩٠٣م

٢٦ — عبد الرازق ، مصطفى
" محمد عبده " مصر ١٩٤٦ م

٢٧ — عبد الكريم ، احمد عزت
" تاريخ التعليم في عصر محمد علي " مصر ١٩٣٨ م

٢٨ — مبارك ، علي باشا
" الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة " مصر ١٣٠٥هـ

٢٩ — المخزومي ، محمد باشا
" خاطرات جمال الدين الافغاني الحسيني " بيروت ١٩٣١م

٣٠ — النووي ، ابو زكريا يحيى بن شرف الدين
" متن الاربعين حديثا النووية في الاحاديث الصحيحة النبويه " مصر ١٣٥٨ هـ

٣١ — هيكل ، محمد حسين
" حياة محمد " مصر ١٣٥٨ هـ

٣٢ ـ واني ، الدكتورعلي عبد الواحد
" لمحة في تاريخ الازهر " مصر ١٣٥٥ هـ

٣٣ ـ يونس ، عبد الحميد و توفيق ، عثمان
" الازهر " مصر ١٩٤٦ م

٢ - بالاجنبية :

34 - Cromer, the Earl of
" Modern Egypt" London, 1908

35 - Gibb, H.A.R.
" Mohammedanism " London, 1949

36 - Heyworth - Dunne, J.
" An Introduction to the History of Education in Modern Egypt"
London, 1938

37 - Schacht, J.
" The Encyclopaedia of Islam, Article: Muhammad 'Abduh"

38 - Bekally, Achille
" L'Universitè d'El-Azhar et ses Transformations "
Paris, 1927

الشيخ محمد عبده

المصلح الديني في القرن التاسع عشر

ـ ملخص البحث ـ

الفصل الاول ـ نشأة محمد عبده ودور اعداده :

ولد محمد عبده المصري سنة ١٨٤٩ م . ونشأ في قرية محلة نصر نشأة ريفيه حافلة بالنشاط . ودرج صغيرا بين ابوين سمت اخلاقهما فتأثر بما عهده عندهما من اعمال الخير . حفظ القرآن كله غيبا على قارئ خاص في مدة سنتين فاظهر بذلك زكاء واقتدارا . ارسل بعدئذ في سن الثانية عشرة الى المسجد الاحمدي بطنطا ليجود القرآن . وبعد سنتين اتقن التجويد وجلس في حلقات العلم . فاستعصى عليه فهم النحو لعقم الاسلوب المتبع في تعليمه . وتكونت عنده على الاثر عقدة نفسيه ففر من المسجد يائسا من التعلم وعاد الى قريته عازما على الاشتغال بملاحظة الزراعة . وتمكن ابوه بعد اربعين يوما من اكراهه على العودة . ولكنه هرب في الطريق الى قرية كنيسة اوربن فلقي فيها خالا لابيه . كان هذا الرجل شيخا صوفيا يدعى الشيخ درويش خضر تمكن بحكمته وروحانيته من اجتذاب نفسية الفتى النافره من العلم وحل عقدتها وفتح لها باب الفهم فتكشفت عندئذ شخصية الفتى عن قوى فكرية وروحية كامنه . بصّر هذا الشيخ مريده بعيوب المسلمين واكد له بطلان اسلامهم لما شاع فيهم من كذب وخصام . بقي محمد عبده مع هذا الشيخ اسبوعين تبدلت فيهما ميوله وصار يحب طلب العلم والمعرفة قرة عين له . وفي العام التالي ١٨٦٦ م دخل الازهر يطلب العلم فيه . كانت كتب الازهر وشيوخه يومئذ في حالة جمود . درج محمد عبده في الازهر متصوفا معتزلا للناس . وبعد قراءته معظم الكتب بدأ الملل يتسرب الى نفسه المتعطشة الى العلوم العقلية . كان الازهر مقفرا من هذه العلوم . ولما جاء جمال الدين الافغاني سنة ١٨٧١ م الى مصر لزمه الشاب عبده وصار اقرب تلميذ اليه . اثر هذا الاستاذ الجديد في شخصية تلميذه تاثيرا بعيدا وحوله عن صوفيته وفتح عينيه على ضعف المسلمين وانحلالهم ومناهضة الغرب لهم والاخطار الاستعمارية المحدقة ببلاد

الشرق عامة ومصر خاصة ودفعه الى خوض غمار الاصلاح . كان اكبر الفضل فى النمو العقلى الذى اصابه محمد عبده راجعا الى السيد جمال الدين الذى وجه نفسه المريد وجهة الطموح والحرية فانكسرت عنه زجاجة التقليد وردّ الى مملكة العقل وسلطانه . قرأ محمد عبده على استاذه علوما عقلية ونقلية كثيرة باسلوب طريف ونال شهادة العالمية من الازهر سنة ١٨٧٧ م .

الفصل الثانى ـ اصلاحه الدينى

لما تكشفت نفس الشاب عبده عن نوازع الاصلاح وانخرط فى حقله كان الجيل المصلم فى مصر يعانى انقساما فى العقلية وتباينا فى الاتجاهات الفكرية . فتلامذة المدارس الرسمية قد تسربت اليهم نفحة من تيارات الغرب فاورثتهم نزعة التمسك بالعقل . فى حين ان طلبة الازهر كانوا متعلقين باهداب النقل . اما عامة المسلمين فقد انحرفوا عن الدين الصحيح وفشت فيهم البدع وناموا على لا فراش التقليد لا يزعجهم شئ وسرت فى معتقداتهم لذلك مفاهيم تناقض مبادئ الاسلام فعمد الشيخ عبده الى هدم التقليد وبناء العقل . واخذ يشن غاراته ويلقى كا قنبلاته على الذين لا يعقلون . يقف عند كل اية فى القرآن تدعو الى تفكر وعقل وينادى منها جميع المسلمين ان افيقوا وتفكروا . وخلف لنا تراثا ادبيا رائعا فى هذا المضمار يعد بذورا قوية لاحداث النهضة العقلية . نظر فى روح العصر الجديد فادرك منزلة العقل فيه وقام يركز دعوة الاسلام على الادلة العقلية ويؤكد مسعاه ويؤيده بنصوص من القرآن تقرع آذان المقلدين الواهمين . صرح بان الاسلام يقوم على دعوتين الاولى الى الايمان بالله والثانية برسالة محمد . وبرهن على ان الاولى لا تعتمد الا على الدليل العقلى فى النظر الى نظام الاكوان . اما الثانية فتستند الى معجزة القرآن اللغوية والعلمية . كان من جملة ما دعا اليه الشيخ عبده ان يفهم الاسلام من ينابيعه الاولى وان يتخطى المسلم هذه الكتب الدينية السقيمة الى القرآن والسنة . ونهج الشيخ عبده هنا على نهج ابن تيميه وابن القيم ومحمد بن عبدالوهاب فى محاربة التوسل بالانبياء والاولياء واهل القبور . ونفى عن مفهوم الشفاعة

معانى العامة التى تمس العدالة الالهية ولكنه فى رد التوسل وتعليق الشفاعة تكشف عن غالة نفوذه الى حقيقة الدين . وعلى كل حال فقد كان لعمله اثر نافع فى زحزحة العقيدة عن اوضاع الشرك والاستغاثة بالمخلوقين . ودعا الى العلوم العصرية متاثرا بتقدم اوربا على طريقها . وفسر القران تفسيرا جديدا ادخل فيه بعض ما استقاه من الافكار الاوربية الحديثة . واكد ضرورة العلم الحديث ليحصل المسلمون الثروات ويقتنوا المدمرات ويدافعوا عن الدين والبلاد فكان بهذا داعيا الى التوفيق بين الدين والمدنية .

الفصل الثالث :- الدعوة الى الاسلام والدفاع عنه

عمل محمد عبده مع جمال الدين فى باريس على بث الحمية الاسلامية فى رجال الاسلام فى اقطار الشرق . فاصدرا جريدة العروة الوثقى الملهبة للمشاعر . ثم اضطرت الى الاحتجاب لما لقيته من محاربة الانكليز لها . فى هذه الاثناء كان محمد عبده يكتب الرسائل الى العلماء فى مختلف البلاد الاسلامية يدعوهم بها الى نشر الاسلام والاستكثار من المريدين لتعزيز عملية الارشاد . تنم رسائله عن توقعه لظفر الاسلام وانتصاره على المناهضين .

وقد عمل فى بيروت ، بعد عودته من باريس ، على التقريب بين الاديان الثلاثة فالف جمعية دينية سرية ضمت افرادا من المسلمين والنصارى واليهود وارسل القس الانكليزى اسحق طيلر يدعوه الى الاسلام . ومن دفاعه عن الاسلام والعمل على نشره ما ازاله من شبهات التفسير لبعض الايات القرآنية . فابطل شبهة الغرانيق وايد عصمة الانبياء وكمالهم واستحالة ظهور النقص فيهم وازاح عن محمد ما تقوله خصوم الاسلام عليه من تعلّق بزينب واكد الشيخ عبده ان قصة زينب انما اريد بها تشريع نظام جديد فيما يتعلق بالرجل وزوجة متبناه وحلّ تزوجه بها عند تطليق دعيّه لها . واوضح الشيخ عبده مسالة الاختيار فى الاعمال الانسانية وحلل الاعمال الى ناحيتيها الارادة والفعل فاثبت حرية الارادة لدى البشر وقال بخلق الافعال .

قام محمد عبده التبشير ومدارسه باسلوب لطيف حكيم فى بادىء الامر حين كان محررا لجريدة الوقائع المصرية ونجح فى جعل المدارس الاجنبية فى مصر تحت رقابة الحكومة . وقد اشتدت لهجته على التبشير فيما بعد وادرك اغاره فى تكفير بعض المسلمين .

تعرض المسيو هانوتو لنقد الاسلام فى مقال له فاجابه محمد عبده بمقال آخر اظهر فيه قوة وحميه للدين . وازاح الشبه التى القاها هانوتو على مسالتى القدر والتوحيد فى الاسلام فاذاع هذا الرد شهرة محمد عبده فى العالم الاسلامى .

الفصل الرابع — اعماله فى ميدان الاصلاح الاسلامى

١ — فى الجمعية الخيرية الاسلامية — اثرت فيه سياحاته فى اوربا فاطلع على الاعمال الخيرية المنظمه فيها . واحتذاها فى تاسيس جمعية خيرية اسلامية بمصر سنة ١٨٩٢ م وتولى رياستها سنة ١٩٠٠ م فزاد اجتهاده فى خيرها وظل يراسها حتى حانت وفاته .

٢ — فى اصلاح الازهر — اصبح الازهر فى ختام القرن التاسع عشر فى حاجة الى اصلاح وتعديل ليستطيع التكيف مع الحياة الجديدة السارية الى مصر فحاول الشيخ عبده القيام بهذه المهمة وهو اعرف الناس بما عليه الازهر من خلل . ونجح فى اقناع الخديوى عباس الثانى بضرورة هذا الاصلاح فتاسس مجلس ادارة للازهر كان هو فيه ممثلا للحكومة .

ولم يتمكن الشيخ عبده من اصلاح الازهر روحيا لمناوأة المحافظين له وتغلبهم اخيرا عليه عندما اصبح الخديو ضدا له . واضطر الى الاستقالة من المجلس . تجل اصلاحاته العادية فى زيادة المرتبات التى كان يتناولها العلماء والعدل فى توزيع كساوى التشريف واصلاح مساكن المجاورين وادارة الازهر ومنهاجه وامتحاناته ومكتبته . والقى فيه دروسا فى التفسير والتوحيد والبلاغه اثارت الفكرة فى تلاميذه المستمعين .

٣ــ في الافتاء ــ اظهر نشاطا فائقا لما تولى هذا المنصب وافتى الحاضر والبادى . وحقق فى قرارات محكمة الجنايات بنفسه ليصدر فتواه فيها . وبالجملة كان متساهلا فى الفتاوى المتعلقة بالاحوال المستجدة الناجمة عن اختلاط المسلمين بظروف المدنية الحديثة . ولم يكن دوما موافقا للقرآن .

٤ــ فى اصلاح المحاكم الشرعية ــ اكد ضرورة المحاكم الشرعية وقام بتفتيش دقيق لمحاكم الوجه البحرى وكتب على اثره لائحة بالاصلاح بحث فيها ثلاثين بندا وعلق عليها نظراته فى اصلاح خللها .

الفصل الخامس ــ دراسة نقديه

حالة المسلمين فى فترة اصلاحه ــ ظهر محمد عبده على مسرح الاصلاح والامم الاسلامية ممزقة الوحدة منحطة العقل وفى غاية الانحلال الاجتماعى والسياسى . فادرك ضرورة التنبيه الفكرى وتحطيم سلطان التقليد .

تعقيد وثنائية فى شخصيته .ــ ولكن جمال الدين القى فى شخصيته افكارا متضاربة عقدتها وجعلت فيها ثنائية . اوحى اليه هذا المعلم الافغانى بضرورة الاخذ عن اوربة ومجاراتها فى مضمار العلوم الحديثة وفى الوقت نفسه كان يعتقد بانها قشور . اكد له مدنية اوربا وصرح بوحشيتها اثار فى تلميذه الاعجاب بها والقى فى روعه كرهها وبغضها لانها تناهض الشرق . اعلن بان القران هو الكتاب الوحيد الذى يلاقى فيه المسلمون شفاؤهم من كل مرض واذاع شهرة كتاب تاريخ التمدن الاوربى لكيزو . بين ضرورة الرابطة الدينية فى نهوض الشرق وشفعها برابطة اخرى وطنية .

مدرسة محمد عبده بين المحافظين والمتفرنجين ــ ظهرت هذه الثنائية فى شخصية هذه المدرسة فهى تؤمن بالدين وتؤمن باوربا مما اثار عليها الدوائر المحافظة وابعد عنها المتفرنجين

فكان عملها صعبا للغاية . ولكن محمد عبده كان مخلصا للاسلام صادقا فى ايمانه . عمل على نصرة الاسلام فاظهر مناقب جمة اقواها ثقته بالعقل ووفرة نشاطه .

عدم كفاية فهمه للاسلام لانهاضه — ولكن ضحالته فى المعرفة الصوفية وتفوقه فى الفكر صبغا مفاهيم الاصلام فى نظره بصبغة فكرية لا تكفى لتشييد امة اسلامية . فهو اذ يصف الايمان يصوره قناعة فكرية تاتى بالاستدلال العقلى ولكن هذا هو فى الواقع اول مرحلة من مراحل الايمان وهناك درجات اعلى وهى ايمان القلب الناجم عن الاستنارة بنور اليقين . وقد سمح الشيخ عبده بالتاويل والقرآن يحجر عليه ليسد باب الجدل ويصرف الناس الى العمل . فالعمل بالقرآن هو الوسيلة لفهمه .

وقد علّق الشيخ عبده مفهوم الشفاعة وهو ينبوع قوة روحية يستقى منه المجتمع الاسلامى روح الوحدة فى جميع اتجاهاته . كما ابطل مفهوم الوسيلة فخالف القرآن مجروحا باتجاهات ابن تيمية والوهابية فى حين ان التوسل شرع ثابت ولكن لا كما تفهمه العامه . واخيرا لم ينفذ الشيخ عبده ، فى ما وصلنا اليه من دراستى لحركته ، الى روح الاصلاح الدينى الذى هو فى جوهره اخلاقى وايصال للارواح الى ربها كى تستقى منه الفضيلة وتحيا بها حياة اجتماعية خلقية وادعة فى ظل العدالة والاحسان والمرحمة والسلام . فظن ان اصلاحا للفكر كاف للنهوض بالمسلمين .

.....

وهكذا وقف الشيخ محمد عبده فى عتبة الاصلاح الدينى ولم يدرك صدارته . .

الطالب

محمد بشير خوله

١١ حزيران ١٩٥١